صاحب شخصية مصر

جمال حمدان

وملامح من عبقرية الزمان

بقلم

الدكتور عبد الحميد صالح حمدان

مكتبة مدبولى

لا أدرى لماذا لم يخطر ببالى أبداً أننى سأكتب عن شقيقى جمال حمدان ، وأنه لم يتطرق إلى ذهنى أننى سأنعيه أو أرثيه فى يوم من الأيام ، فقد كان كالطود الشامخ الذى لا يتزعزع ، والنهر المتدفق الذى لا ينضب معينه . وكانت حياته كلها عبارة عن كفاح مستمر فى سبيل العلم والتنوير بمعناهما الدقيق والعريض ، ولم تشوبها شائبة الأطماع أو التهافت ، فقد كان ينأى عن الصغائر وعن الدعاية لنفسه ، وعلمته ظروف الحياة أن يبتعد عن زخرفها وبهرجها ، تاركا لأعماله ـ ولأعماله وحدها ـ أن تتحدث عنه . ومن ثم اختار لنفسه أن يعيش راهبا فى محـراب الفكر ، وارتضى لها فى سبيل ذلك اعتزال الناس والاعتكاف فى داره بعيدا عن ضوضاء المجتمع وضجيجه ، وارتاح لذلك ومالت هذه النفس المطمئنة للعلم وحده ، فوهبها له ، وانقطع عن العالم الخارجى ليضع هذا العلم فى خدمة مصر التى مات وهو يفكر

فيها ، وفى شئونها وهمومها ومشاكلها . وكانت فلسفته فى الحياة تقوم على أساس أن لا شىء يعلو على العلم ، وأن الدنيا بدونه لا تساوى شيئا ، وأن هذا العلم لا يأتى من فراغ ، ولكن بالكد والاجتهاد .

وكان ـ ككل العلماء الجديرين بهذا اللقب ـ يتفوق على تخصصه بل ويتخطاه لكى يضع معارفه العلمية والمتخصصة فى السياق الشامل والطبيعى للتاريخ الكلى ، أى التاريخ الذى يجمع بين الحضارة والمعرفة والثقافة والسياسة والجغرافيا وغيرها من العلوم الأخرى . فكان بذلك يصل العلم بحياة الناس ومشاكلهم وكيفية حلها ، وإعطاء المؤشرات السليمة التى تهديهم إلى مستقبلهم ، وكيفية التعامل مع هذا المستقبل بطريقة علمية مدروسة .

لقد غاب عنا جمال حمدان بجسده ، ولكنه سيظل حاضرا معنا بروحه وأفكاره وتراثه !

ولا نزعم أن هذه الصفحات تشكل سيرة أو تاريخا كاملا لحياة جمال حمدان ، ولا ندعى أنها دراسة متعمقة فى فكره أو إنتاجه العلمى الغزير ، فهذا أمره متروك للباحثين والعلماء ولجانهم المختلفة ، وتلك

مهمتهم التى قد تحتاج إلى سنوات طويلة من البحث والاستقصاء .

ولكن هذه الصفحات وإن كانت تجمع - بإيجاز - بين هذا وذلك ، تعتبر بالأحرى بمثابة ذكريات من النسى المنسى ، جاءت كلها عفو الخاطر . أثارتها فى نفسى وفاته المأساوية ، فتجمعت الأحزان وتواردت السوانح والأفكار ، فجاءت هذه الصفحات تعبيرا عنها .

اعتادت والدتى ـ رحمها الله ـ أن تــلد فى قريتنا « ناى » ، مركز قليوب (محافظة القليوبية) ، التى تبعد عـن القـاهرة بنحو ٤٠ كيلو مترا ، حيث تتوفر لها العناية الصحية ، وتحظى برعاية والدتها وحنانها . وكان حرصها على ذلك شديدا بعد أن فجعت بوفاة أختنا البكر « سعاد » بعد ولادتها بشهور ، وكان السبب فى ذلك بُعدها عن والدتها وافتقارها إلى التجربة فى مستهل حياتها الزوجية . وصممت بمباركة من جدتى ، على ألا تضع أولادها إلا وهى بجوارها .

وكان والدى يصحبها قبل شهـر من تاريخ الوضـع إلى بيت حماته ، ويأتى لزيارتها والاطمئنان عليها أسبوعيا بعد خروجه من مدرسته التى كان يعمل بها ، ويظل بجوارها طوال عطلة الأسبوع . وهكذا ولدت هناك شقيقتى المرحومة « شكرية » ١٩٢٢ ، ثم شقيقى محمد ١٩٢٤ ، فشقيقى المرحوم جمال الدين ١٩٢٦ ، ثم « جمال

حمدان ، فى يوم الأربعاء الموافق ٤ فبراير ١٩٢٨ ، حيث هبط إلى الدنيا فى عزّ أيام الشتاء ، وفوق فرن ساخن !

وقريتنا ناى هذه هى إحدى قرى مركز قليوب ، الذى يضم أيضا عدة قرى مجاورة هى كفر رمادة ، وكوم أشفين والجعافرة ، وميت حلفة ، وطنان ، وقلما . وكلها قرى عامرة بالزراعات وخاصة الفاكهة . وكانت عدتها أيام المماليك تسعة عشر ألف دينار ومساحتها تزيد على ألفى فدان ، وكانت جارية فى إقطاع جماعة من المماليك السلطانية ورجال الحلقة المنصورة ، على حد قول ابن دقماق فى انتصاره . وقال ياقوت الحموى فى معجم بلدانه أنها من أعيان قرى مصر ، قريبة من الفسطاط ، ذات بساتين ، وميرتها (أى خراجها) عشرة آلاف دينار فى كل عام .

والواقع أن هذه القرى كانت مصدر تموين القاهرة بالأجبان والسمن والقشطة ، فإذا ما انقطع المجلوب منها ، وقع أهالى القاهرة فى ضائقة شديدة كماقال ابن إياس فى بدائعه . ولذلك كان السلاطين يهتمون بحفر خلجانها ، وتشييد السدود عندها كما حدث بالنسبة لسد الخشب الذى كان قائما عند ناى وطنان . وكان أهالى ناى وضواحيها

هم أول من شق عصا الطاعة على العثمانيين الأتراك ، وكانوا يقطعون عليهم الطريق ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم . وذكر ابن إياس أن السلطان أرسل تجريدة لمحاربتهم ولكنها لم تظفر بهم ، بعد أن هربوا إلى الجبال !

ويحكى أنه ظهرت فى رمضان سنة ٩١٥هـ ، فتاة دون البلوغ ، قيل إنها رأت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام عدة مرات ، وظهرت لها كرامات خارقة ، فكانت تقيم المقعد وترد بصر الأعمى ، وذاع صيتها فى القاهرة ، وزارها فى بلدتنا الأمراء وأعيان الناس التماسا لبركتها !

ووصل فى يوم من الأيام ونحن صغار نمضى الإجازة الصيفية ببلدتنا ناى ، رجل ادعى أنه من الأولياء ، وتجمع حوله أهل البلد وأحـاطوه برعـايتهم حتى اتضح لأخى جمال أنه من المشعوذين ، وأحس هو بذلك ، وخشى على نفسه ، وتسلل من البلدة تحت جنح الليل ولم يعد نسمع عنه بعد ذلك !

ومحافظة القليوبية كانت تعتبر فى أيام المماليك العمل الثانى من أعمال مصر ، ومقر ولايته « قليوب » .

وقد خرّجت القليوبية عددا كبيرا من العلماء ، منهم الأمام الليث بن سعد (١٧٥ هـ) الذى ولـد بقرقشندة (أو قلقشندة) وكان شيخ الديار المصرية وعالمها ، وكان ثقة كثير الحديث صحيحه ، واشتغل بالفتوى فى زمانه كما ولد بها أبو العباس أحمـد بن على القلقشندى (٨٢١ هـ) صاحب موسوعة « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ». وحكا لى والدى أن نسب عائلته حمدان يرجع إلى فلول القبائل العربية التى نزحت من الجزيرة العربية ، واستقرت فى الديار المصرية بعد الفتح الإسلامى ، ومنها بطن « حمدان » الذى استقر - على غير عادة القبائل الأخرى - فى القليوبية بالوجه البحرى . وقد ذكر القلقشندى أن هذا البطن هو من بطون قبيلـــة « جذام » المشهورة التى نزلت بالشرقية (وكانت القليوبية تابعة للشرقية - فى ذلك الوقت) .

ولما كان والدى ينحدر من عائلة ريفية ، فقد كان مصيره الاشتغال بالأرض ، ولكنه توسل إلى والده لكى يرسله إلى المدرسة لكى يتعلم القراءة والكتابة . وتحقق أمـله ، ودخل كتاب القرية حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن . ولما رأى شيخه عليه إمارات النجابة وحبه للعلم ، ذهب إلى والده (جدى) ونصحه بأن يترك محمود

(والدى) ليستكمل تعليمه ، وبأنه سيتولى إرساله إلى الأزهر الشريف بالقاهرة!

وكان هذا ما حدث بالفعل ، فقد سافر أبى مع والده حيث أودعه الأزهر الشريف ، وأقام أبى فى رواق الأكراد ، وعاش على ما كان يحصل عليه من جراية ، وجدّ واجتهد حتى حصل على تجهيزية الأزهر ؛ ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعى التى كانت تخرج القضاة الشرعيين للعمل بالمحاكم الشرعية فى مصر . ولكن والدى ـ لسوء حظه ـ لم يستمر بها إلا لعدة شهور ، وتم فصله منها نهائيا عقابا له على خروجه على رأس المظاهرات عندما قامت ثورة سنة ١٩١٩م . واضطر فى العام التالى إلى دخول مدرسة المعلمين ، وتخرج منها مدرسا للغة العربية . وظل يتنقل من مدرسة إلى أخرى إلى أن عين مدرسا بمدارس الأمير فاروق التى كانت تابعة لنظارة الأوقاف فى ذلك الوقت ، والتى كانت تقع بحى روض الفرج .

وكان هذا مدعاة لانتقالنا إلى السكن بالقرب من المدرسة ، واختار أبى حى شبرا بجوار جامع الخازندار ، واستأجر شقة هناك .

وتشاء الصدف أن نسكن فى شقة مقابلة لشقة عائلة إيطالية من العائلات الكثيرة التى جاءت إلى مصر ، إما للعمل أو للتجارة . وكان رب الأسرة فنانا يعمل بمدرسة الدون بو سكو الايطالية . وتوطدت العلاقات بين الأسرتين بصورة متينـــة ، وكنـا نعامـل « مدام فيكتوريا » (وهو اسم ربة البيت) كوالدتنا تماما ، وكانت هى تعتبرنا أولادها حيث أنها لم تزرق بأولاد . وكان تأثير هذه السيدة على والدتى كبيرا ، وتعلمت منها أشياء كثيرة تتصل بفنون تدبير المنزل والطهى ، لدرجة أننا دأبنا على تسمية قطع الأثاث فى المنزل بأسمائها الايطالية . كما أنها كانت هى التى أطلقت على أخى « جمــال » اسمه الذى عرف به بيننا طوال حياته : « لولو » ، وهو تصغير لاسمه « جلال » الذى كان والدى قد اختاره له عند ولادته ، والذى تبين فيما بعد وعند تحرير استمارة دخوله امتحان الشهادة الابتدائية أن اسمه قد كتب خطأ فى شهادة الميلاد على أنه « جمال » بدلا مــن « جلال » . وفشلت جهـود أبى فى تصحيح الاسـم وإعـادة الأمور إلى نصابها ، لا سيما وأن أخيه الأكبر منه مباشرة كان اسمه « جمال الدين» ، ولم يكن هناك بدّ من تسمية أخى جلال باسمه الجديد « جمال » ، وأصبح فى بيتنا « جمال

الدين و « جمال » . ومما هوّن من الأمر أننا كنا ننادى هذا الأخير باسم « لولو » طوال حياته منعا لأى لبس أو خلط بينهما ، وعرف بيننا بهذا الاسم واشتهر ، وسنرى كيف أن اسم الشهرة قد أنقذه من شر مستطير .

وعندما ولد أخى ، كان على رأس الحكومة فى مصر عبد الخالق باشا ثروت الذى استقال فى مارس ١٩٢٨ ، وخلفه فى رئاسة الوزارة رئيس الوفد وخليفة سعد باشا زغلول ، مصطفى النحاس باشا ، غير أنه لم يبق فى الحكم مدة طويلة ، فقد أقاله الملك فؤاد فى شهر يونيه من هذه السنة ، وحلّ البرلمان فى شهر التالى أى فى شهر يوليه ، وعطل الدستور ، وتولى محمد محمود باشا رئاسة الوزراة بمرسوم ملكى ، وبمباركة بلدوين الذى كان يرأس حكومة بريطانيا العظمى حتى ١٩٢٩ .

وكان أبى يعمل فى المساء أيضا مصححا بجريدة « اللواء » التى كان يصدرها محمد توفيق دياب ، بعد أن اضطر إلى ذلك لمواجهة أعباء المعيشة المتزايدة . وكان يسعى فى الوقت ذاته للتعيين فى مدارس وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم حاليا) ، ونجح فى ذلك واستلم عمله بإحدى مدراسها الواقعة فى حى شبرا بالقرب من

المدرسة التوفيقية ، واضطر أبى إلى تغيير السكن ليكون على مقربة من مدرسته . وقد قضينا فى هذا الحى كل أيام الصبا والشباب ، وأمضينا فيه زهرة العمر .

وفى سنة ١٩٣٦ ، وهى سنة اعتلاء فاروق عرش مصر بعد وفاةوالده الملك فؤاد ، وصل أخى إلى سن دخول المدرسة الابتدائية ، فألحقه والدى بمدرسة شبرا الابتدائية للبنين ، وكانت تقع بالقرب من بيتنا وفى مواجهة مدرسة التوفيقية الثانوية . فأمضى بها سنوات الدراسة الابتدائية الأربع دون أحداث تذكر سوى ولعه بلعب كرة القدم ، وتشوقه إلى حصة « فلاحة البساتين » التى كانت مقررة علينا فى ذلك الزمان !

وحصل على الشهادة الابتدائية فى يونيه ١٩٣٩ . وفى سبتمبر من هذا العام أعلنت الحرب العالمية الثانية . ولم تدخل مصر هذه الحرب إلى جانب الحلفـاء إلا فى فبراير سنة ١٩٤٥ ، ولكننا ذقنا أهـوالها وتحملنا آثارها .

وقدّم أخى أورقه للالتحـاق بمدرسـة التوفيقـية الثانـوية ، وقبل بـها بالـسنة الأولى . وقد أنشـئت هـذه المـدرسـة فى عـهـد الخـديو توفـيق

(١٨٧٩ - ١٨٩٢) الذى تبرع بمبناها (ويقال إنه كان عبارة عن اصطبل للخيول والعربات الخديوية !) ، ولذلك سميت باسمه . وشهدت هذه المدرسة كل مراحل تطوره ، وانصهرت موهبته فى بوتقة هذه المدرسة العريقة التى كانت من المدارس الثانوية التى يشار إليها بالبنان فى مصر ، وكانت هى والمدرسة السعيدية والمدرسة الخديوية ، ومدرسة فؤاد الأول من أشهر المدارس علميا ورياضيا .

فقد كان على رأس المدرسة التوفيقية فى ذلك الوقت ناظرها الجليل والمربى الفاضل عبد الحميد نجاتى ، وخلفه الاستاذ الكريم عاطف البرقوقى . وكانت المدرسة تضم نخبة من الأساتذة المعروفين فى عالم الرياضيات والعلوم والفلسفة والجغرافيا والتاريخ . كما كانت تجمع أكبر اللاعبين فى معظم ميادين الرياضة ولا سيما كرة القدم . وكانت تقام بها أقوى مباريات كرة القدم التى كنا لا نتخلف أبدا - أنا وأخى جمال - عن حضورها عصر كل خميس . وكانت بها أسماء لامعة فى سماءكرة القدم مثل عبد الكريم صقـر ، والجندى ، ومدكور ، وغيرهم من المهرة فى كرة القدم .

وفى هذه المدرسة ـ وبالتحديد فى آخر سنة له بها ـ التقى بأستاذه الجليل المرحوم محمود جمال الدين الذى كان يدّرس له علم الجغرافيا فى السنة التوجيهية بالقسم الأدبى . وكان هذا الأستاذ بعلمه وفضله هو الذى حبب الجغرافيا إليه خصوصا بعد أن اكتشف نبوغه وولعه بهذا العلم واستعداده الفطرى له . وكم مرة رأيت فيها أخى وهو يصحب أستاذه حتى باب داره ـ وكانت تقع خلف دارنا مباشرة ـ وهو يحدثه عن الجغرافيا !

وواكبت سنوات دراسته فى المدرسة التوفيقية سنوات الحرب كلها تقريبا ، وما أفرزته من آلام وخراب ودمار. ولكن الحياة لم تتوقف ، بل سارت بحلوها ومرها . وكان من المتفوقين فى دراسته ابتداء من السنة الأولى ، وكان يستذكر دروسه من أول يوم فى السنـة حتى لا تتراكم عليـه قبـل الامتحـانات ، وكان لا يتوانى عن سهر الليالى استعدادا لدخولها . وقد تكللت جهوده بالنجاح ، فحصل على شهادة التوجيهـية (الثانوية العامة حاليا) بتفوق فى شهر يونيه ١٩٤٤ ، وكان ترتيبه السادس على طلبة القطر المصرى بأسره .

وتعرف أخى فى هذه الفترة على زملاء له من طلبة المدرسة التوفيقية ربطته بهم روابط الزمالة والصداقة ، ومنهم المرحوم الدكتور رفعت المحجوب ، والدكتور صبحى عبد الحكيم والدكتور عبد العزيز الشربينى وغيرهم من كبار الشخصيات التى لعبت دورا هاما فى حياة مصر فى السبعينات والثمانينات . وكانت له مجموعة من الأصدقاء يخرج معهم للتنزه أو للعب الكرة . وهكذا كانت تمضى إجازاته الصيفية أثناء الحرب ، وبعد انقطاعنا عن الذهاب إلى بلدتنا « ناى » بعد وفاة جدتى . وكانت متعته أيضا القراءة ، سواء كانت كتب علمية أو روايات من روايات الجيب التى كانت تصدر فى ذلك الوقت تحت إشراف الأستاذ عبد العزيز أمين ، والتى كانت تتخاطفها الأيدى وتتناقلها لأسلوبها الشيّق وأحداثها المثيرة . فكان يعيش مع هذه الروايات لحظات جميلة ويمضى مع أبطالها ساعات ممتعة ، ولا ينفك يتحدث عن أرسين لوبين أو شرلوك هولمز وعن مغامراتهما وأعمالهما الجهنمية !

وكان عادة ما يذهب إلى إحدى دور السينما الصيفية التى كان حى شبرا يعج بها ، وكانت تعرض آخر وأحدث الأفلام الأمريكية وآخر

أنباء الحرب فى نـشراتها الإخـبارية التى كانت تسبـق عرض الفيلم الرئيسى .

ولما حصل على شهادة التوجيهية ، توجه بلا تردد صوب قسم الجغرافيا بكلية الآداب - جـامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) لتقديم أوراقه لمواصلة دراسته الجامعية . فقد كان يعرف هدفه وطريقه الذى رسمه لنفسه بعد أن أضحى علم الجغرافيا بالنسبة له مطمح آماله ، ومجال أحلامه ومربط فرسه وتطلعاته فى الحياة . وقد شجعه على ذلك ما كان يتمتع به من موهبة طبيعية فى ميدانى الرسم والخط ، فقد كان رساما وخطاطا رائعا إلى جانب حبه للموسيقى والطرب والغناء .

ذهب جمال إلى أبى ليخبره بالنتيجة وبعزمه على مواصلة دراسته الجامعية والالتحاق بقسم الجغرافيا . فوافق على الفور ، ووعده بأن يذهب معه لتـــقـديم الأوراق . ولا تسل عن فرحة أبى وفخره وهو يصحب نجله إلى كلية الآداب فى الجيزة لتقديم أوراقه ودفع الرسوم المطلوبة ! فقد كان هذا تجسيدا لتعبه فى تربيته لأولاده ، وتحقيقا لأمل

كان يراوده ، ولم يتحقق قبـل ذلك ! فقد كان أخى أول من يحصل على التوجيهية وأول من يدخل الجامعة من عائلتنا ! فكان هذا بالنسبة له ولوالدتى ، بمثابة يوم فرح وعيد !

وقبل أن تبدأ الدراسة فى قسم الجغرافيا ، استعد لها كل الاستعداد ، واشترى حاجياته من كراسات المحاضرات والأوراق والأقلام ، وعمل اشتراكا فى الترام لينقله فى رحلتى الذهاب والإياب من شبرا إلى الجيزة وبالعكس .

وكانت سنه قد تجاوزت السادسة عشر بشهور .

وقسّم أخى وقته بين حضور المحاضرات والتردد على مكتبة القسم والكلية ، مع متابعته من حين لآخر لبعض الأنشطة الاجتماعية والثقافية .

وحدث فى سنته الأولى ، أن سقط بين عربات الترام من شدة الزحام ، فأصيب إبهام قدمه إصابة شديدة ذهب على أثرها إلى المستشفى للعلاج ، ولكنه خرج منها فى مساء نفس اليوم بعد أن ضمدوا له جراحه ، واطمئن على أنه لا توجد أى رضوض أو كدمات أخرى .

وفى شتاء هذه السنة ، أى فى أوائل سنة ١٩٤٥ ، حضر إلى بيتنا

فى المساء ، أربعة من رجال البوليس السرى (لعلهم من المخبرين) ، وطرقوا الباب ، ففتحت لـــهم والدتى . ولما طلبوا منها أن تستدعى ابنها جمال ليذهب معهم إلى قسم البوليس لأخذ أقواله فيما نسب إليه من أنه عضو فى حزب مصر الفتاة ! فردت علـــيهم والـــدتى بكل براءة بأن « جمال » غير موجود ، وأنه فى طنطا بمعهد إعداد مدرسى الرياضة البدنية ! (وكانت تقصد بذلك جمال الدين شقيقى الأكبر منه ، والذى كان فعلا قد التحق بهذه المدرسة بعد أن فشل فى تعليمه الثانوى) . ولما قالوا لها: إنه طالب بالجامعة كما ورد بالأوراق التى فى حوزتهم ، أجابتهم بأن هـذا هو « لولو » ، أما جمـال فهو فى طنطا ! وانصرفوا بعد أن تركوا لها طلب الاستدعاء باسم جمال حمدان !

وقصت والدتى هذه الواقعة على والدى عند عودته إلى البيت ، فقال لها إن « لولو » هو جمال حمدان ، وهذا هو اسمه ، أما « لولو » فهو اسم الدلع ! ثم ذهب أبى إلى قسم الشرطة ، ونفى اتصال أخى بأى حزب أو انتمائه إلى حزب مصر الفتاة كما أكد له أخى قبل أن يذهب إلى هنالك ، وأقفل المحضر على ذلك !

وقد جـاءت هـذه الحـملات البوليسية وازدادت عقب اغتيال أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء فى فبراير ١٩٤٥ ، الذى أعلن الحرب على ألمانيا واليابان إلى جانب الحلفاء ، وتولى بعده محمود فهمى النقراشى باشا .

وكان الوضع السياسى فى البلاد غير مستقر ، وانتشرت المظاهرات والاضرابات التى اتسمت بالعنف وبدخول عنصر الراديكاليين والأخوان المسلمين ، ومطالبتهم بإلغـاء معاهدة ١٩٣٦ وبـجلاء الإنجليز عن مصر ، وإنهاء السيطرة البريطانية على السودان . وشرح لى أخى بعد ذلك أنه ذهب بالصدفة للقاء صديق له ، فوجده فى اجتماع للطلبة الأعضاء فى حزب مصر الفتاة ، فتكلم معه لمدة دقائق ، ثم غادر القاعة ، ولكن يبدو أن عيون الحكومة قد رصدته !

انتقل أخى إلى السنة الثانية بعد أن نجح بدرجة جيد جدا فى السنة الأولى . وبانتقاله إلى هذه السنة ، انتقل إلى الرحاب الواسعة لعلم الجغرافيا ، والتقى بأساتذته الأفذاذ الذين سيتركون بصماتهم القوية على طريقة تفكيره وعلى نظرته إلى الجغرافيا . ففى هذه السنة درس على يد جهابذة علماء الجغرافيا فى مصر ، وعلى رأسهم الأستـاذ مصطفى

عامر ، وكان جمال يجلّه ويكن له كـل تقـدير ، ويعتبـره المؤسس والأب الروحى لمدرسـة الجغرافيـا المصرية الحديثـة ، وإليـه أهـدى أول أعمـاله التى صـدرت لـه باللغة الإنجليزيـة عـام ١٩٥٥ ، وهـو كـتاب Studies in Egyptian Urbanism .

وكان في مطـلع حياته قد اعتـاد على إهـداء مؤلـفاته وأعـماله إلى أساتذته من الجغرافيين ، وسنرى أنه توقف عن هذه العادة عندما قطع صلاته بهم ، وأصبح يهدى مؤلفاته رأسا إلى القراء كافة .

ومن هؤلاء الأساتذة ، الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد الذى تأثر به جمال تأثرا شديدا فى بداية حياته الجامعية ، وكان لفرط إعجابه به يحفظ مؤلفاته عن ظهر قلب ، لا سيما كتابــه « نهر النيل » .

وظل جمال يكن الحب والود لأستاذه الدكتور عـباس عمار حتى بعد أن ترك سلك التدريس الجـامعى ، وأهـدى إليـه مؤلفـه « جغرافية المدن » رمزا لحب وتقدير كبيرين . وقد كان الدكتور عمار - رحمه الله - يحدثنى عنه كلما التقينا فى حديقة جامعة جنيف الذى كان يمضى بها عدة ساعات كل يوم أحد ، حيث كان يعمل نائبا لمدير عام منظمة

العمل الدولية ، وكنت أعمل فى ذلك الوقت مساعدا لأستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعــة جنيف . وقال لى فى إحدى المرات ، ولعلها الأخيرة قبل وفاته : إن كتابات جمال حمدان ستغيّر وجه الجغرافيا فى مـصر ، بل وتاريخها إذا كان هناك من يسمع ومن يقرأ !

أما الدكتور سليمان حزين ـ أطال الله فى عمره ـ فقد كان بالنسبة له رائد فلسفة الجغرافيا دون منازع وحامل رايتها ومبدعها .

وكان له اساتذة يعزّهم ويقدرهم ، منهم الدكتور محمد محمود الصياد والدكتور حسّان عوض .

وكان أخى قد التقى بالمرحوم الدكتور محمد الفاتح عقيل قبل سفره إلى جامعة هارفارد فى أمريكا ، وذلك بحكم الجيرة ، فقد كان الدكتور يسكن فى مقابلة بيتنا . وأذكر أنهما كانا عند عودة الدكتور عقيل فى إجازة ، يمضيان الساعات الطوال وهما يتحدثان على قارعة الطريق ويتجاذبان أطراف الحديث عن الجغرافيا وعن حياة الدكتور عقيل فى أمريكا . وظلت هذه الصداقة قائمة لحين عودته من أمريكا وتعيينه أستاذا بقسم الجغرافيا ـ كلية الآداب جامعة الإسكندرية .

وكانت هذه السنة الثانية ، سنة حاسمة فى حياته الجامعية ، فقد

حصل فيها على الامتياز الذى خوّله فى السنة الثالثة حق تعلم اللغة الألمانية ، وحضور محاضرات تتعلق بمنهجية البحث ، وهى محاضرات كانت مقصورة على الطلبة الحائزين على درجة الامتياز فى السنة الثانية .

وهكذا تعلم اللغة الألمانية كأستاذه الدكتور عوض محمد عوض ، وكان ذلك على يد المسز بيرج ، والبرفسور ران ، وهو مستشرق سويسرى ، له أبحاث ودراسات هامة فى التاريخ الإسلامى ، وقد كان لى حظ الاطلاع على ذخائر مكتبته من الكتب العربية والأجنبية التى اشتراها من مصر والعالم العربى ، التى باعتها ورثته لمكتبة جنيف .

وحصـل جمـال على درجة ليسانس الآداب بامتيـاز (أو بتقدير ممتاز) ، وكانت سنه آنذاك لا تتجاوز العشرين سنـة ! فعيّن معيدا بالكلية فى نفس سنة تخرجه أى فى أكتوبر١٩٤٨ . وفى تلك الأثناء ، توطدت علاقته بالإستاذ محمود أمين العالم الذى كان يحضر لرسالة الماجستير ويعمل فى الوقت نفسه أمينا لمكتبة قسم الجغرافيا . وكم من مرة عادا معا من القسم مشيا على الأقدام بمحاذاة شاطئ النيل يتحدثان ويتناقشان .

وانطبقت على جمال شروط البعثة الفهمية ، وهى البعثة التى كانت قد خصصتها ورثة المرحوم كامل باشا فهمى للطلبة المتفوقين ممن حصلوا على ليسانس الآداب بامتياز وعمرهم يقل عن إحدى وعشرين سنة عند التخرج ، لكى يستكملوا دراساتهم العلياً فى الخارج على نفقتها وتحت إشراف ادارة البعثات . فاختير لهذه البعثة ، وأعد عدته للسفر إلى انجلترا ليحقق أكبر حلم فى حياته العلمية والعملية وهو الحصول على درجة الدكتواره ، والتعمق فى علم الجغرافيا واكتناه أسراره . . .

تجهز أخى للسفر إلى انجلترا ، وأجرى اتصالاته بإدارة البعثات ، وراسل معظم جامعات انجلترا المشهورة ، ووقع اختياره بعد البحث والتنقيب على قسم الجغرافيا بجامعة ريدنج ، الذى كان يضم أعظم أساتذة الجغرافيا فى العالم .

وحزم حقائبه ، وحصل بفضل شركة كوك للسياحة على مكان له

على ظهر باخرة انجليزية من البواخر الناقلة للجنود التى كانت تمر عبر قناة السويس .

وفى شهر مارس من سنة ١٩٤٩ ، وكنت أنا فى التوجيهية بمدرسة شبرا الثانوية (القسم الفرنسى) ، خرجت الأسرة لوداعه فى محطة مصر ، حيث استقل القطار المسافر إلى بور سعيد ، وكنت أنا فى صحبته . وانهال البكاء وانهمرت الدموع مع تحرك القطار ، ومع الدعوات بسفر سعيد وبتحقيق الآمال !

ووصلنا إلى بور سعيد عند الظهر ، واتجهنا رأسا إلى الميناء حيث كانت ترسو الباخرة . وبعد أن انتهى من جميع إجراءات السفر ، صعد إلى الباخرة بعد أن قبلنى مودعا ، وفرّت الدموع من عينى ، وحاولت أن أخفيها ، ولكنه ربت على كتفى وقال : يا أخى يجب أن تفرح ، فأنا ذاهب لأحقق أغلى أحلامى ! وأضاف : إحنا كلنا عاطفيين جدا ! وأقلعت الباخرة فى المساء وهى مكتظة بالجنود الانجليز العائدين من استراليا إلى بلادهم . . .

ووصل إلى ميناء سوثها مبتون فى انجلترا بعد رحلة عاصفة لاقى فيها الأهوال عند خليج بسكاى حيث اشتدت الرياح وارتفعت الأمواج

واضطرب البحر واضطربت معه الباخرة ومن فيها . ومنه استقل القطار المسافر إلى لندن ، وتوجه إلى مكتب البعثات لإبلاغه بوصوله ، وتلقى التعليمات والإرشادات اللازمة . وأمضى عدة أيام فى لندن قبل أن يسافر إلى ريدنج . وحكا لى كيف أنه أمضى هذه الأيام وهو يذرع لندن يمينا ويسارا وطولا وعرضا ! وكان معظم وقته يقضيه فى زيارة المتاحف كالمتحف البريطانى ، ومتحف فيكتوريا وألبرت ، وتيت جاليرى ، كما زار معالمها وحدائقها ، ولم ينس زيارة بيكر ستريت الذى يقع فيه بيت شرلوك هولمز ، كما مر على شارع اكسفورد فاشترى لنفسه قبعة صحبته طوال فترة وجوده فى انجلترا ، وعادت معه إلى القاهرة حيث قبعت فى دولاب ملابسه ! وكان فى شبابه حريصا على حسن هندامه ، أنيقا فى ملبسه .

وسافر من لندن إلى ريدنج فوصل إليها بعد ساعتين ، مارا بالريف الانجليزى الجميل الذى كان قرأ وسمع عنه من قبل . وترك حقائبه بمخزن أمانات محطة السكك الحديدية ، واستعلم عن موقع الجامعة ، وذهب إليها فورا ، وتقدم إلى مكتب المسجل لاتخاذ الإجراءات اللازمة ، والحصول على عدة عناوين للسكن . وغادر الجامعة مزودا

بهذه العناوين ، واهتدى إلى سكن مريح بغرفة مفروشة عند سيدة كبيرة السن كانت تؤجرها بالأسبوع للطلبة . واستقر به الحال عندها ، وكانت ترعاه وتدبر له شئونه ، وتقوم بجميع أعمال الطبخ والغسيل والكى نظير بضعة شلنات إضافية .

وتقع مدينة ريدنج فى مقاطعة بير كشاير على نهرى كنّت والتيمس . وانشئت جامعتها سنة ١٨٩٢ كفرع لجامعة أكسفورد ، واستقلت عنها نهائيا فى سنة ١٩٢٦ . وهى جامعة مشهورة بأقسامها التى تدرس فيها العلوم الزراعية والألبان والعلوم الإنسانية كالجغرافيا والانثروبولوجــيا .

وبهذه المدينة صناعات مزدهرة مثل مصاهر الحديد ، ومصـانع المعدات والآلات الزراعيـة ، كمـا اشتهـرت بصناعـة « البسكويت » والطباعة والجعة . وهى مدينة عتيقة سكنها السكسون قبل عصر الدانمركيين . وبها كنيسة سان لوران التاريخية ، ذات الطابع النورماندى ، والتى أصبحت كنيسة بروتستانتيه فى أواخر القرن الخامس عشر .

وكانت الجامعة قد حددت له موعدا لمقابلة الأستاذ الذى سيشرف على دراساته ورسالته ، وهو الأستاذ أوستين ميللر ، الأستاذ بقسم الجغرافيا بالجامعة . وحدثنى بعد عودته من انجلترا أنه قد أحس بالارتياح عند لقاء أستاذه وأمضيا معا وقتا طيبا للتعارف وتبادل الحديث حول رحلته وانطباعاته عن انجلترا وعن مدينة ريدنج ، وغير ذلك من الأمور العامة ، ولم يتطرق الحديث إلى الدراسة أو أى شىء من هذا القبيل . ودعاه أستاذه لزيارته فى منزله وتناول طعام الغداء مع أسرته . وتكلما بعد ذلك فى الموضوعات العلمية والدراسية ، وحدد له موعدا أسبوعيا للمقابلة . وكان أخى يحضر محاضراته ويجمع مادة رسالته فى آن واحد ، ويعرضها على أستاذه خلال المقابلة الأسبوعية .

ويعتبر الأستاذ أوستين ميللر من كبار علماء الجغرافيا الانجليز ، وكان الطلبة يقصدونه من جميع الأقطار لتبحره فى علمه واهتمامه بدراسات الشرق الأوسط . وقد توفى هذا الأستاذ فى ٣١ مارس ١٩٦٨ ، وقد حزن عليه أخى حزنا شديدا ، فإليه يرجع الفضل فى انكبابه على مؤلفات كبار الجغرافيين والمؤرخين العرب ، وكلفه بترجمة عدة أجزاء

من خطط المقريزى إلى اللغة الانجليزية .

واختار جمال موضوعا لرسالة الماجستير حول « سكان وسط دلتا النيل » . وبعد مضى سنة أو أكثر من العمل المتواصل ، وضع خطة بحثه وكتب مقدمتها وعرضها على أستاذه الذى رأى أن هذا العمل أكبر من أن يكون مـوضوعا لدرجـة الماجستير ، وأنه يرقى إلى أن يكون موضوعا مناسبا لدرجة الدكتوراه ، لا سيما بعد أن لمس الأستاذ ميللر تفوقه ونبوغه العلمى . فشجعه على المضى فى البحث ، وطلب منه العودة إلى مصر لاستكمال أبحاثه ومراجعه . وعاد فعلا إلى مصر بعد أن كان الإرهاق والتعب قد أخذا منه كل مأخذ ، وأعياه الجهد وأضناه السهر مع الكتب والمراجع ، ولم يستطع مقاومة طقس انجلترا الردىء فى الشتاء ، وكان قد غلبه أيضا الحنين إلى بلده مصر ، فقرر العودة فى سنة ١٩٥١ . وتعهدته والدتى برعايتها وأحاطته بعنايتها وحنانها ، فاسترد صحته وارتفعت معنوياته ، وما أن انتهى من جمع مادة رسالته ، والاتصال بأصدقائه وأساتذته ، حتى قفل عائدا إلى ريدنج ، ليبدأ مرحلة كتابة الرسالة ، وهى أصعب المراحل وأهمها .

وانتهى من كتابة رسالته ودفـع بـها إلى الآلة الكاتبـة لطبعها ، بعد أن وافق الاستاذ ميللر وأثنى عليها . واستعد للمناقشة التى جرت بالتحديد فى شهر يونيه ١٩٥٣ ، ومنحته الجامعة درجة دكتوراه الفلسفة فى الجغرافيا مع مرتبة الشرف الأولى .

وكان أخى طوال هذه الفترة يراسلنا ويتحفنا ببعض الصور التذكارية التى التقطت له ، وما زلت احتفظ ببعضها عندى حتى الآن . وتعرف أثناء وجوده فى ريـــدنج على زمـيلته فى الجـــامعة الآنســـة « ويليـما » ، وارتبط بها ارتباطا وثيقا ، فكانا يذهبان معا إلى المحاضرات وإلى المكتبة ، ويخرجان إلى النزهة فى عطلات نهاية الأسبوع .

وسافرا معا فى صيف ١٩٥٠ إلى ميناء برايتون حيث أمضيا عدة أيام للاستجمام والراحة من عناء الدراسة والبحث . ولما انتهى أخى من رسالته عرض عليها الزواج والسفر معه إلى القاهرة . ولكنها ترددت فى الانتقال النهائى إلى مصر ، ووعدته بالتفكير فى الموضوع واتخاذ قرارها فى هذا الشأن بعد أن فشلت فى إقناعه بأن يتزوجا فى ريدنج

وان يستقرا بها . واستمر يراسلها بعد عودته إلى مصر لعدة سنوات ، ولم تنقطع العلاقة بينهما إلا بعد زواجها ، وارتباط جمال بعلاقة حب مع إحدى زميلاته في الكلية . ولم تسفر هذه العلاقة الأخيرة عن تحقيق رغبتهما في الزواج نظرا للمشاكل التي صادفها أخي في عمله ، وانتهت بعد عدة سنوات كسابقتها بزواج زميلته من زميل آخر !

ودع جمـال الأصدقاء والمعارف فى ريدنج ، عائـدا إلى بلده . واستقل القطار إلى لندن ومنها إلى باريس التى وصلها فى منتصف الليل تقريبا . فذهب إلى أقرب فندق وألقى بأمتعته ، وخرج إلى عرض باريس مدينة النور ليستكشف مبانيها وشوارعها ، واجتاز الشانزيليزيه واقترب من قوس النصر ليراه رأى العين ولكى يسترجع ما قاله أحمد الصاوى محمد وتوفيق الحكيم وغيرهما عن هذه المدينة الساحرة التى جمعت بين الفنون والعلوم . واستمر الحال على هذا المنوال طوال أربعة أيام . وأكد لى بعد ذلك أنه لم يترك أى ركن فى باريس إلا وزاره ، وخاصة الحى اللاتينى والانفاليد ومونبارناس والمونمارتر ! وعاد محملا بذكريات جميلة كان يحدثنى عنها كلما عدت إلى القاهرة من باريس . وركب القطار من باريس إلى مرسيليا ، وصعد إلى ظهر الباخرة الإيطالية التى أقلته إلى الاسكندرية . . . وابتعدت أوربا وابتعد عنها ،

واتجه بالقطار إلى القـاهرة مفعمـا بالآمـال الكبـار ، ومتـفائلا بالمستقبل . . .

وكان قد سمع ، بطبيعة الحال ، وهـو فى ريـدنج ، عن قيام ثورة الضباط الأحرار فى مصر فى٢٣ يوليه ١٩٥٢ . ورغم أنه كان غارقا فى كتابة رسالته ، فإنه كان يتابع الأخبار بلهف شديد . وكانت الأنباء قد حملت إليه قبل ذلك أحداث حريق القاهرة فى ٤ فبراير من نفس هذه السنة ، وما أعقب ذلك من إقالة وزارة مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد ، وتولى على ماهر باشا مقاليد الوزارة لفترة قصيرة ، ثم جاء من بعده أحمد نجيب الهلالى باشا ، ثم قيام الثورة وخروج الملك فاروق من مصر . وتوالت هذه الحوادث الجسام وأخذت تترى بسرعة البرق ، ثم تمحورت وتمركزت حول اللواء محمد نجيب وأعضاء مجلس قيادة الثورة .

وهكذا عاد جمال إلى مصر ليجد أن الدنيا غير الدنيا التى تركها ، وأن الحال غيرالحال الذى اعتاده . وكانت الأحزاب قد حُلّت ، وأُلغيت الملَكّية وأعلنت مصر جمهورية رئيسها اللواء محمد نجيب الذى كان فى نفس الوقت رئيسا للوزراء ، وصدر الدستور المؤقت .

وتفاعل جمال خيرا ـ كغيره من ملايين المصريين ـ بقيام الثورة ، وأحس بارتياح كبير لهذا التغيير ، وتطلع إلى المشاركة الفعلية فى هذه الثورة ، بما يملكه من علم وفكر . وكان يرى فى ذلك الوقت أن نجاح هذه الثورة لن يتأتى إلا بتكتل كل الشعـب وراء ثورته ، بالعمل والإنتاج . قال لى أخى فى إحدى المرات وكنت أزوره فى مكتبه بقسم الجغرافيا ، أنهم وزعوا عليه وعلى زملائه فى الجامعة استبيانا فيه سؤال عن الوظـيفة التى يرغـب فى شـغلها والتـى يستطـيع فى إطـارها خدمة وطنه . فكانت إجابته على هذا السؤال هــى : وزير الشئون البلدية والقروية (وكانت قائمة فى ذلك الوقت) . ولما أعربت له عن دهشتى لاختيار هـذه الوزارة ، وبأن يكون وزيرا مرة واحــدة ، قـال : يا عـزيزى ! إن من يـتـولى هـذه الـوزارة يمـلك فى يده نهضة مصر أو تخلفها ! وعدد لى مزايا وفوائد هذه الوزارة ومهامها ، وأن الشئون البلدية هى البنية الأساسية التى بدونها لا تستقيم حياة الناس فى المدن ، وأن الشئون القروية هى العمود الفقرى الذى بدونه ينقصم ظهر مصر ! وكان والحق يقال متحمسا لخدمة مصر فى المكان المناسب الذى يستطيع من خلاله أن يحقق لها الرفعة والتقدم .

وعثر جمال على شقة صغيرة بحى الدقى ، اختارها بنفسه وانتقل إليها فى شهر اكتوبر ١٩٥٧ ، تفاديا للمعاناة التى كان يلاقيها يوميا فى الانتقال من بيتنا فى شبرا إلى عمـله فى الجيزة ، والتماسا للهدوء والسكينة . وكان هذا الفراق شديد الوطأة على الأهل ، وخاصة أن أبى كان قد فوجئ فى هذه السنة بأنه قد أحيل إلى المعاش ! أقول فوجئ لأنه لم يكن يعلم أنه قد وصل إلى سن الستين وهى سـن التـقاعد ! وكان يشعر أنه ما زال صالحا للعمل ! فاضطربت أحواله ، واعتلت صحته بعض الوقت ، ولكنه سرعان ما تماسك بعد أن قرأ فى الجريدة إعلانا تطلب فيه المملكة العربية السعودية عددا من المدرسين المصريين للعمل بمدارسها . وتقدم والدى ومعه بعض زملائه إلى المكتب الثقافى السعودى بالقاهرة ، وأتم تعاقده للعمل فى مدارس المملكة العربية السعودية . وظل أبى هناك طوال عشر سنـوات . وكنت أنا قد انتقلت من قنصليتنا العامة فى ككلتا بالهند ، إلى سفارتنا الجديدة فى تونس . وبهذا انفرط عقدنا ، وخلا البيت على والدتى واخوتى واخواتى الصغار . ثم تقرر على إثر ذلك أن تنتقل الأسرة إلى سكن جديد فى حدائق القبة .

ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن !

وأحس أخى بآثار الاختلالات السياسية والاجتماعية والثقافية التى هزت البلاد . وظهر له أن النظام السياسى للثورة لم يكن محوره سوى مركزية شديدة للسلطة مع هيمنة كاملة للمؤسسة العسكرية ، اختلطت فيها العلاقات الشخصية (أهل الثقة) بالعلاقات السياسية ، مع سيطرة الشلل وتراجع الضمانات الديمقراطية الحقة .

وكان موقنا بأن أى جهاز للحكم إذا ما استحوذ على السلطة بلا حدود ، فإنه يستطيع أن يرفع إنسانا ويخفض إنسانا آخر بلا قواعد أو أسس سوى الولاء للنظام ، وبذلك تنتفى المعايير الموضوعية المتصلة بالكفاءة أو النبوغ ، وهى كل ما كان يملكه جمال حمدان !

وقد تأكد له ذلك عندما وقعت مصر معاهدة استقلال السودان ، وكان يعارض الطريقة التى تم بها ذلك وكان يقول علنا أمام الطلبة فى محاضراته : لقد أضاع الصاغ الراقص مصر والسودان معا ! كما رفض رفضا باتا أن يكون ذيلا لأى من أعضاء هذه المؤسسة العسكرية ، ولم يقبل ما عرض عليه ليكون مستشارا للمؤتمر الإسلامى الذى تأسس فى ذلك الوقت .

وساءت الأمور بالنسبة لأخى فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب . وبدأ الكل يتربصون به الدوائر . وكان من سوء طالعه ان التقى - غيرعامد ولا متعمد - بتلك الكثرة من الديناصورات التى كانت لهم صــلة « بفــلان » أو « عــلان » ، ممن كانوا يعتبرون ذلك جواز مرورهم صوب اعتلاء المناصب القيادية بلا مجهود أو علم . ولم يقتصر الحال على تخطيه فى الترقية ، بل وصل الأمر إلى حد حرمانه من تدريس مادته المفضلة وهى جغرافية المدن ، وتكليفه بتدريس مادة الخرائط لطلبة السنة الأولى ، والتى عادة ما كان يقوم بها المعيدون ! . وقاسى جمال من هذه السفاهات الكثير ، وهى صغائر يطول شرحها ، وهى بلا شك معروفة للجميع .

وانتدب جمال للعمل فى جامعة القاهرة « فرع الخرطوم » ، وهناك وجد أن أحد الزملاء ممن سبقوه فى العمل بالخرطوم ، قد سطا على كتبه ومحاضراته وطبعها ووزعها على الطلبة على أنها من بنـات أفكاره ! وأصيب بالدهشة واستولى عليه الغضب ، وأثبت لطلبته أنه صاحب هذه النصوص . وعاد أخى بكل المرارة بعد أن أمضى فى الخرطوم فصل دراسى واحد ، أنجز فيه أحسن دراسة كتبت عن مدينة

الخرطوم باللغة الانجليزية ، ليجد أن نفس هذا الاستاذ ينافسه على الترقية بل ويحصل عليها قبله بدون وجه حق . . . وأيقن أخى فى قرارة نفسه ـ وبعد أن تأثرت صحته من جراء هذه الترهات ـ أنه لن يقوى على الوقوف أمام هؤلاء الديناصورات ، وأنه لا سبيل إلى محاربتهم بسلاحه الوحيد الذى كان لا يملك سواه وهو سلاح العلم . ورأى أن الأولى به أن ينسحب من هذا الميدان ، وأن يترك هذه الكعكة ليتقاسموها بينهم . . . وأن يكرس نفسه لتحقيق مشروعه الكبير الذى كان يحلم به . . .

وعايشت أخى فى محنته هذه ، فلم يكن قراره بالانسحاب والاعتزال بالأمر الهين ، ولا هو بالقرار السهل . وقد اقترحت عليه أن يأخذ إجازة دراسية ، والسفر إلى انجلترا لانجاز ما كان يطمح إليه من الحصـول عـلى ، دكتوراه الآداب ، وهى أعلى من دكتوراه الفلسفة فى انجلترا ، ولم تمنح إلا لعدد قليل من العلماء والاساتذة المبرزين . ولكن طلبه رفض ! ولم يتبق أمامه سوى الانسحاب . . .

وعندئذ اعتكف بمنزله ، وأرسل استقالته إلى الجامعة ، ولكنه حتى فى هذه المرة لم ينج من المضايقات والمعاكسات ، وعُلقت استقالته لمدة

سنتين مما أعاقه عن الحصول على حـقوقه ! ولم يخطيء أخى التقدير ، فقد كان قراره فى ذلك الوقت هو القرار السليم الذى كان ولابد من اتخاذه رغم قسوته وتطرفه !

وأصيب بحالة من الكآبة والمرارة ، ومرّ بفترة عصبية أمره طبيبه المعالج على أثرها ، بالكف عن أى نوع من التفكير أو الكتابة . وسافرت معه إلى « حلوان » ، وكانت من أجمل منتجعات مصر وملجأ لطالبى الراحة والاستجمام ، قبل أن تلوثها عوادم المصانع . وهناك تفرغ تماما للرسم وسماع الموسيقى والخروج للنزهات القصيرة ، والنوم المبكر . وعاد سليما معافا ، وأشد عودا وصلابة وأكثر تصميما على مواصلة العمل وتخطى الصعاب واقتحامها بطريقته الخاصة . وقد دامت حالة المخاض هذه قرابة شهرين ، هدأت فيها نفســه ، وناقش فيها أموره، ورسم معالم مستقبله ، التى تبلورت فى ذهنه .

ورتب بعدها حياته فى العزلة ترتيبا صارما بعد أن اهتدى إلى فكرته المتمثلة فى اعتزال العالم ، والاعتكاف فى داره ليعيش فى محراب العلم بين كتبه وأبحاثه . ولزم شقته الصغيرة ، ولم يكن يخرج إلا قليلا لقضاء حاجة أو لزيارة مكتبة أو دار نشر .

وكان قد استقر فى نفـسه أن السعادة ليست فى المال ، ولا فى الجاه ، ولا فى المناصـب العليا ، بل فى تحقيق الذات بأداء رسالته التى وهب نفسه لها وهى العلم ولا شىء سوى العلم . ولا شك أن هذا الصراع بين مقتضيات العلم ومقومات الحياة قد دام لديه لفترة غير قصيرة . وسألته فى إحدى المرات عن أسباب هذه العزلة الشديدة ، فقال بالحرف الواحد : اسمع يا عزيزى ! بوسعى أن أجلس فى المقاهى والمنتديات وأضع رجلا على رجل وساقا على سـاق ، وأقول أنا الدكتور جمال حمدان كما يفعل غيرى ، ويمكن بسهولة أن أمسح جوخ لهذا أو لذاك لأصل كما يصل المتُسَلِّقة ، ولكننى لم أخلق لهذا ولا لذاك ، ودعك من التفاهات والمظاهر الكذابة ! وكان يرى أن الأمر لا يحتمل إلا الجد ، وأن مصر تمر بأدق مراحل تاريخها ، وأنه لابد من التضحية فى سبيل تقدمها ونهضتها وإلا ساد انحلال عام فى المعايير والمستويات الحضارية ، وهو ما يتهددها فى الوقت الحـاضر ، لا سيما بعد أن غرسوا لـها فى ظـهرها « دولة إسرائيل » !

وكان لا يسمح لأحد بأن يقتحم عليه عزلته دون موعد سابق . وكنت عندما أريد أن أراه ، أمر عليه فى الصباح وأترك له بطاقة بموعد

حضورى ، أو أطرق بابه بطريقة معينـة (عبارة عن ثلاث طرقات متقطعة) فإذا فتح الباب ، وكان مشغولا فى عمل أو يقوم بتمريناته الرياضية ، أجلسنى فى هدوء فى غرفة استقباله المتواضعة حتى ينتهى من عمله أو تمريناته .

وكان له « طباخ » يصنع له طعامــه ويتولى تنظيف المنزل ، وشراء الحوائج من السوق ، ولا بأس من إرساله إلى البنك أو إلى مكتب البريد ! وكان هذا الطباخ بالإضافة إلى الصحف والمذياع ، بمثابة همزات الوصل بين جمال وبين العالم الخارجى !

وأذكر فى هذه الفترة أن نصحـه طبيبه المعــالج بإجـراء عمـلية « الزائدة الدودية » التى كان يشكو منها . وذهبت إليه صباح اليوم المحدد لدخول المستشفى . وخرجنا بعد أن أعد عدته للعملية ، وإذا به ونحن فى منتصف الطريق يقول لى : اسمع ! هيا بنا إلى بيتى ، فقد قررت عدم إجراء العملية ، فلست بحاجة إليها وكان هذا ما حدث فعلا، ولم يجر أخى أى عملية جراحية فى حياته . وتوصل بقوة عزيمته وتنظيمه لأكله والقيام بالتمرينات الرياضية ، إلى التغلب على متاعبه

الصحية إلى حدما ، ولكنها كانت تعاوده من آن لآخر نتيجة الإرهاق وكثرة التفكير والسهر .

ولم تكن له طريقة معينة فى العمل ، ولم يكن يأخذ عطلة أسبوعية للراحة ، بل كان يعمل حتى يكلّ ، ويشعر بالتعب ، فيتوقف عن العمل ويخلد إلى الراحة التى كان يجدها فى قراءة الصحف والمجلات مع ممارسة التمرينات الرياضية ، فإذا ما أحس بأنه قد استعاد قواه ، عاود نشاطه تدريجيا حتى يستغرق فى عمله كلية . وكان الفن والرسم وسماع الموسيقى من الأمور التى كانت تعتبر بالنسبـــة له ، صمام الأمان ، ضد أى نوع من الإرهاق العصبى .

وكان رغم هذا يفتح بابه لعدد من المقربين الذين كانوا يترددون عليه من حين لآخر ، أذكر منهم الاستاذ يوسف القعيد والدكتور عبد العزيز كامل ، والاستاذ محمد حسنين هيكل ، بعد ان ترك رئاسة تحرير الأهرام ، والاستاذ حسين ذو الفقار صبرى نائب وزير الخارجية سابقا قبل أن يُصدر مؤلفه ، يا نفس لا تراعى . . . ، وغيرهم من مثقفى مصر وتلاميذه ، وكان له موعد شهرى مع ناشر مؤلفاته .

كان جمال يعى فى قرارة نفسه أن الأقدار قد اختارت له ما أراد ، ولم يشعر عند انسحابه من الحياة العامة ، بأنه قد ألقى بنفسه فى فراغ أو فى ضياع ، بل بالعكس كانت هذه العزلة بالنسبة له فرصة للإنتاج والإبداع بعيدا عن أسوار الجامعة وقيودها ، ولما حُرِم من إلقاء محاضراته فيها ، قرر أن يخرج بها على الجـميع وأن يلقيها على الملأ، وكان السبيل الوحيد المتاح أمامه هو التأليـف .

وكان قد أصدر بعد عودته من البعثة عدة مؤلفات باللغــة العربية (انظر قائمة مؤلفاته باللغة العربية الواردة فى الملحق الأول) ، نذكر منها :

- أنماط من البيئات ، ١٩٥٨ ؛
- دراسات فى العالم العربى ، ١٩٥٨ ؛

- جغرافية المدن ، ١٩٥٨ ؛

وذلك بالإضافة إلى عدة مؤلفات باللغة الانجليزية (انظر قائمة مؤلفاته باللغة الانجليزية الواردة فى الملحق الثانى) .

وأصدر بعد اعتكافه عددا من المؤلفات القيّمة ، نذكر مدها :

- المدينة العربية (١٩٦٤)؛
- الاستعمار والتحرير فى العالم العربى (١٩٦٤) ؛
- بترول العرب (١٩٦٤) ؛
- إفريقيا الجديدة (١٩٦٦) .

وكتب العديد من المقالات والبحوث التى نشرت فى الصحف والمجلات المصرية (انظر قائمة مقالاته المنشورة فى الصحف والمجلات العربية والواردة فى الملحق الثالث) .

وكانت نكسة يونيه ١٩٦٧ ، هى التى فجرت شرارة ملحمته الكبرى « شخصية مصر » . فقد صدمته الهزيمة وهزت كيانه ، كما صدمت وهزت ملايين المصريين . وكان قد تنبأ بوقوع هذه الهزيمة فى مقال له صدر بعنوان : « هل تملك إسرائيل سلاحا ذريا ؟ » ، وذلك فى سنة١٩٦٥ ، أى قبل النكسة بعامين ! ولم يكن يتوقع أن تكون تلك

الهزيمة على هذه الدرجة من القسوة والشدة . ولم يكن ممن يستسلمون للإحباط أو فقدان الثقة ، بل عكف رغم جراحه على إنجاز « شخصية مصر ـ دراسة فى عبقرية المكان » ، وحاول فى هذا الكتاب أن يعرّف المواطن العادى والمثقف العام بجوهر وطنه ، ويدله على شخصيتها المصرية والعربية ، ويحدد له معدنها القومى الأصيل ، ودورها الإنسانى والحضارى . ودفع بهذا الكتاب إلى « دار الهلال » التى تلقفته واصدرته فورا فى سلسلة كتبها الشهيرة « كتاب الهلال » ، فى شهر يوليه ١٩٦٧ . وكان مع صغر حجمه بلسما شافيا للمثقفين والمواطنين العاديين الذين كانت الهزيمة قد حطمت معنوياتهم ، فانعدمت الثقة وتعذرت الرؤية . . .

وقال فى مقدمة هذا الكتاب : إننا فى المرحلة الحالية من تطورنا فى حاجة ماسة إلى فهم كامل لوجهنـــا ووجهتنا ، لكياننا ومكاننا ، لا مكانياتنا وملكاتنا ، ولكن أيضا لنقائصنا ، ونقائضنا ، كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز ولا هروب ، فليس هذا دفاعا عن مصر ، ولا هو محاولة شوفينية للتمجيد ، وإنما هو تشريح علمى موضوعى يقرن

المحاسن بالأضداد على حـد سواء ، ويشخص نقاط القوة والضـــعف سواء بســواء ، وبغير هذا لا يكون النـقد الذاتى . وقـــد لا يرضى هذا السطحيين والدعــاة . . . . .

ثم أصدر بعد ذلك طبعة منقحة ومزيدة لهذا الكتاب ، جاءت فى نحو ألف صفحة . وقد انتشر هذا الكتاب وتلقفته الأيدى ، وتهافت عليه الناس .

ويحضرنى فى هذا المقام أننى فى يوم من الأيام التقيت بصديقى وزميلى المرحوم الدكتور محمد عبد الحليم محـــمود نجل الشيخ الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ، وأخذ يتحدث معى بشأن هذا الكتاب ، وأن وزير الخارجية الدكتور محمود فوزى قد كلفه ـ بوصفه أحد أعضاء مكتبه ـ بقراءة هذا الكتاب (أى شخصية مصر) وعمل ملخص بأهم ما ورد فيه من آراء وأفكار ! فقلت فى نفسى : عمــار يا مصــر طالما فيك رجـال من أمـثال الدكـتور محـــمود فـوزى !

وحدثنى جمال بعد صدور شخصية مصر فى طبعتـه الأولى ، أنه ينوى أن يكون هذا الكتاب هو الأول فى سلسلة تتناول شخصية كل بلد

من البلدان العربية ! فقد كان « عروبى » النزعة ، يؤمن إلى أقصى حد بعروبة مصر ، وبدورها فى العالم العربى . وكان يطبق هذا عمليا على نفسه بتوثيق علاقاته بالأشقاء العرب الذين كانوا يدرسون معه أو درسوا على يديه ، وكانت له مجموعة من الأصدقاء من السودان وليبيا وسوريا والعراق وغيرها من البلدان العربية ، لا أذكر الآن سوى اسم الأديب العراقى الدكتور شاكر حصباك ، والروائى السودانى الكبير الطيب صالح .

وتوالت مؤلفاته بعد ذلك ، فأصدر منها :

- اليهود انثروبولوچيا . . . (١٩٦٧) ؛
- استراتيجية الاستعمار والتحرير (١٩٦٨) ؛

وأعاد نشر هذا الكتاب فى طبعة مطولة سنة ١٩٨٣ ، أكد فى مقدمتها على حاجتنا الحقيقية والملّحة إلى دراسة كاملة ومتكاملة ، أصولية منظمة ، لتاريخ الاستعمار فى العالم من ناحية ، ولتاريخ الصراع الاستراتيجى من ناحية أخرى . ولذلك جاء هذا الكتاب بمثابة دراسة فى الجغرافيا السياسية بجانبها التاريخى والمعاصر ، حاول فيها تتبع مورفو لوجية التاريخ داخل إطار أو أطر واضحة التحديد من

مورفولوجية الجغرافيا . وأورد فيه حركات بناء الامبراطوريات والتوسع الاستعمارى عبر العصور ، عصرا بعد عصر ، مع تحليل دوافعها ومحركاتها ، مع محاولة استشفاف واستنتاج دروسها الجيوستراتيجية الأكثر خلودا وبقاءً .

وجاء كتابه « العالم الاسلامى المعاصر » الذى أصدره فى عام ١٩٧١ ، تحقيقا لرغبة دفينة فى نفسه ، فقد أراد بهذه الدراسة التدليل على أن للدين مكانه المقرر فى الدراسات الجغرافية ، الإقليمية للعالم الإسلامى ، ولكن المقصود ـ بالتعريف ـ هو دراسة الإسلام فى ذاته من حيث هو ظاهرة فى المكان له توزيعه وامتداده الجغرافى الخاص فى اللاندسكيب ، وعلاقاته الايكولوجية معه ، من حيث هو عامل مؤثر فى إقليمه ، وفى تشكيل تاريخه ، وحياة سكانه ، وتكوين أو تلوين وجه النشاط البشرى أو العلاقات الاجتماعية فيه ، بما فى ذلك وعلى الأخص الجوانب السياسة الداخلية ، وتوجيه السياسة الخارجية والمشاكل الدولية . . . الخ . وضم الكتاب أربعة فصول هى :

١ ـ من جغرافية الإسلام

٢ ـ نظرة عامة فى مورفولوجية العالم الإسلامى

٣ ـ خريطة الإسلام السياسية

٤ ـ نظرية الوحدة الإسلامية .

وطلب منه صديقه العزيز المرحوم الأديب الكبير يحيى حقى أن يكتب مقدمة لترجمته لكتاب « القاهرة » تأليف ديزموند ستيوارت . فكتب له جمال مقدمة استوعبت نصف الكتاب تقريبا ! وجاء فيها أن القاهرة هى أم المدن جميعا إذا ما حصر المرء العواصم المخضرمة العريقة فى الدنيا ، وانه ما من عاصمة فى دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية وسيطرة وتوجيه ، وخلص إلى أن القاهرة إذن : «تاريخ مفعم مجمد أو محفوظ ، كل حجر فيها مشبع بعبق الماضى وعرقه ، وكل شبر منها يحمل بصمات الإنسان . . . » .

وأصـــدر فى عام ١٩٧٣ ، كتابه « بين أوروبا وآســيا » ، وكتابه « الجمهـورية العربية الليبيـة » . وفى أعقاب انتصارات حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، أصدر كتابه : « ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمـية » ، حلل فيه هذا الانتصار وأشاد به . وصدر كتابــه عن « قناة السويس » فى سنة ١٩٧٥ .

وفى كتابه الذى أصدر فى ١٩٨٤ بعنوان : « من خريطة الزراعة المصرية » ، نادى بضرورة العودة إلى الزراعة فى مصر ، أو بالأصح عودة الزراعة إلى الأولوية والصدارة ، مؤكدا أن هذه العودة باتت ضرورة أمن وبقاء ، مثلما هى مصل مضاد للاختلال الجسيم بين التوجه الصـناعى والتوجـه الزراعى ، وبين الإنتاج والسكان ، وذلك فى عالم انفجر فيه المدّ السكانى الغامر، بل الطوفان البشرى الكاسح ، إلى آفاق غير مسبوقة ولا ملحوقة على حد قوله فى مقدمته ، وبعد أن اختل فيه التوازن أيضا بين الصناعة والزراعة ، أو بين الإنتاج غير العضوى والعضوى حتى بات يشكو من التخمة فى المصنوعات ومن المجاعة فى الغذاء . وخلص من ذلك إلى أن العودة إلى الزراعة هى العودة إلى الطبيعة ، وبهذه الصفة فإن الزراعة لم تعد حرفة تنتمى إلى الماضى بقدر ما تمتّ إلى المستقبل ، لا سيما فى مصر المتخمة سكانيا ، المأزومة اقتصـاديا ، والمتباعدة باطراد عن الكفاية الذاتية غذائيا . ورسم جمال فى هذا الكتاب خريطة الزراعة المصرية كما هى فعلا دون ما تشخيص أو تقييم أو تقويم ، أى مجرد تحسس لواقع تضاريسها ككل حى نابض .

ورغم هذه الأعمال الفذّة والمؤلفات الجليلة ، كان يعمل بصبر وأناة فى إخراج موسوعتة أو ملحمته الكبرى ـ كما كان يحلو لـه ان يسـميها ـ « شخصية مصر » التى صدرت فى أربعة أجزاء على مدى عشر سنوات ووصل مجموع عدد صفحاتها إلى نحو أربعة آلاف صفحة .

وقد تناول هذا الكتاب كل ركن من أركان مصر ، وكل صغيرة وكبيرة فيها ، ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وتناولها بالبحث العميق فجاء جامعا ما نعا ، وفاق بذلك كل عمليات المسح ، وكل البحوث التى كتبها علماء الحملة الفرنسية والتى صدرت فى كتابهم الشهير : « وصف مصر » .

وأتيح للكتاب « شخصية مصر » أن يحظى بشهرة لم يحظ بها أى كتاب آخر من كتبه العديدة التى تناولت موضوعات على جانب كبير من الأهمية والخطورة . وظفر هذا الكتاب باهتمام النـقاد ، وأصبح اسـم جـمال لا يـذكر إلا وهـو مقرون باســم « صاحب شخصية مصر » . وفى ذلك يقول جمال : إن شخصية مصر استقطبت أكبر عدد من القراء المصريين لأن الموضوع يخصّ بلدهم ، ولقد كان من الغريب أن تعيش مصر بدون أن ترى نفسها فى مرآة علمية ! وقال فى

مناسبة أخرى : إن كتابى شخصية مصر هو من أحب الكتب إلى نفسى وأقربها إلىّ ، فهو موضوع وطنى وقومى ، وقد استغرق منى نحو عشر سنوات من عمرى ، وعدد صفحاته أيضا أكثر من أربعة آلاف صفحة ، وهو ما يعادل كل ما كتبته فى حياتى !

وعندما صدر الجزء الثانى من هذه الموسوعة ، كتب الأستاذ رجاء النقاش يقول : « جاء كتاب شخصية مصر عملا شامخا ، سوف يحتاج القراء والباحثون إلى وقت طويل لقراءته واستيعابه والتعليق عليه ، والاتفاق معه أو الاختلاف حوله ، ولكن الكتاب فى جميع الأحوال هو عمل فكرى وأدبى بالغ الروعة والفخامة والأصالة ، وسوف يعيش الكتاب جـيلا بعد جيل ، ويصبح من الآثار الكبرى التى لا تزيدها الأيام والقرون إلا نضارة وقوة ، وسوف يقال دائما: إن هذا الكتاب واحد من أعظم الكتب التى ظهرت فى الفكر الـعربى فى القـرن العشرين » .

وكان فى كل مؤلفاته يتحرى الموضوعية والحياد العلمى ، كل ذلك بمنهجية صارمة لا تتجوز ولا تتحيز ، وبأسلوب أدبى رفيع . فقد كان بالإضافة إلى علمه الغزير وثقافته الواسعة ، يمتلك ناصية اللغة العربية باقتدار يحسده عليه فقهاء اللغة وشيوخها . ولا أنسى ما قاله لى فى هذا الصدد صديقى وأخى الكريم الكاتب الروائى الكبير الأستاذ بهاء طاهر من أنه قد تعلم من جمال حمدان ومن أسلوبه فى الكتابة ما أعانه كثيرا

فى حياته العلمية ! وفضـلاً عن أنه لم يكن ينسب إلى نفسه أى آراء ليست له ، فقد اتضحت أمانته العلمية بإثباته فى الحواشى كل المراجع التى اطلع عليها أو اقتبس منها . وهو من العلماء القلائل الذين لم تكن اقتباساتهم عن الكتب الأخرى مجرد نقول ، بل جاءت هذه الاقتباسات جزءاً لا يتجزأ من الموضوع الذى يعالجـه .

وقد اخترنا أن نورد هنا ما خلص إليه صاحب شخصية مصر من استنتاجات خاصـة ، بالسـد العـالى ، بعد أن درس هذا الموضوع من كل جوانبه وحلل مشاكله ، فكتب يقول فى الجزء الثانى من هذه المــوسوعة ، وتحت عنوان ، السد العالى فى الميزان ، :

طبيعى أن يكون السد العالى ، كأى مشروع من نوعه وحجمه ، موضع جدل وخلاف منذ نشأته بل من قبل إنشائه ومن بعده . على أن الملاحظ أن معظم ما قيل ويقال عنه يتطرف عادة إما نحو التهويل وإما نحو التهوين ، إيجاباً وسلباً . ومن هنا ففى مقابل النظرية ، المسرفة بالتأكيد ، القائلة بأنه هو الحل الشافى والرد المطلق على مشكلات الزراعة والصناعة والحياة المصرية ، كان هناك رأى متطرف يرفضه من حيث المبدأ ومن البداية . والواقع أنه قبل بناء السد كانت هناك

مدرسة من هندسة الرى فى مصر ترى أن أى محاولة للتحكم فى كل مياه النيل إلى آخر قطرة إنما هى محاولة ضد الطبـيعة ، طبيعة الأنهار ، وأنها تنطوى على كارثة تامة .

أما بعد أن أصبح السد حقيقة واقعة فإن هناك ، ما زال ، من يتساءل عما إذا كانت مصر قد أصابت أم أخطأت فى بنائه . بل لقد تعرض السد فى السنوات الأخيرة إلى حملة محمومة شككت حتى فى سلامة بنائه فنياً ، بينما صورت نتائجه على أنه « كارثة على مصر » ونعتته « بكارثة أسوان » غير أننا ينبغى أن نتذكر أن هذه الحملة الضارية إنما بدأتها عناصر معادية لمصر ، وعناصر صهيونية بصفة أساسية .

هذا فى الخارج . أما فى الداخل فقد تصاعدت الحملة إلى أن وصلت حرفياً إلى حد الصيحة الوندالية « اهدموا السد ! » . غير أن دوافع هذه الحملة هى الأخرى كانت سياسية سافرة . ومن ثم لا محل لها من العلم .

على أن الخلاف داخل دائرة العلم لا يقل للأسف حدة وتطرفاً ،

مما يضع المواطن العادى غير المختص فى حيرة بالغة . فعلى الجانب السالب . يذهب رأى إلى أن « ما حققه السد العالى لنا من مزايا لا يعد شيئاً بجانب ما جره وما سوف يجره علينا من مصائب » . بل إن الأمر ليتعدى حساب المزايا والمضار إلى « ضياع مصر كلها » ، وأن المعركة ضد السد العالى باتت « معركة مصير » وعلى النقيض من هذا تماماً انتهى البعض الآخر إلى أنه « قد لا يوجد مشروع سابق لمشروع « السد العالى عاد بهذا القدر من الفائدة على هذا القدر من البشر . . . وجدير بمن يقللون من قدر هذا المشروع أن ينظروا إليه من الجانب الصحيح من المنظار بعد وضعه فى البؤرة الصحيحة » . أو فى قول آخر أن «السد العالى يعد أكبر إنجاز فى تاريخ الشعب المصرى رغم الأقاويل والادعاءات » . وبين هذه المواقف المتناقضة تماماً ، نستطيع علمياً وموضوعياً أن نلخص النقد الموجه إلى السد فى النقط الست الآتية التى أسماها التحفظات الستة .

أولا ، أنه إن لم يكن مشروعاً سياسياً بقدر ما هو مشروع هندسى ، فإن السياسة قد تداخلت وتدخلت فيه إلى حد بعيد على الأقل ، سواء

على المستوى الوطنى القومى فى العالم العربى أو على المستوى الإقليمى النهرى فى حوض النيل أو على مستوى الصراع الدولى فى العالم بين الكتلتين ، بحيث أصبح مزيجاً معقداً من رمز الاستقلال الوطنى والأمن المائى والقوة السيــاسية . وفى النتيجة اختلطت فى المشروع دوافع المجد القومى مع الجدوى المادية . وفى النهاية تغلب فيه رأى الأوتوقراط على رأى التكنوقراط ، فقدم الأخير البدائل فقط بينما قرر الأول الأولويات .

ومـن هـنا أيضــاً يشـعـر البـعض أنه قـرر وخـطـط فى عـجـلة ، نـحو ٥ سنين فقط مقابل عشرات لمشاريع مماثلة أو أقل . كذلك يشعر البعض بأنه تم فى ظل سباق عنيف وصراع خفى ليس فقط فى مناخ الحرب الباردة ولكن أيضاً مع الادعاءات والمطالب والتحديات المائية لآخرين أشقاء وغير أشقاء فى حوض النيل واستباقاً لخططهم فى فرض الأمر الواقع على مصر هيدرولوجيا وقطعاً للطريق عليهم لقطع طريق الماء عليها . فمثلا كان السودان يعتزم تنفيذ مشروعات مائية من شأنها خفض إيراد النيل فى مصر .

ثانياً ، السد فيما يرى هؤلاء النقاد لم يكن له داع أو مبرر ، وله بدائل عديدة ، وبدائله أفضل منه وأجدى . فإذا كان شرط الموقع الوطنى ضرورة مسلما بها من الجميع بما يستبعد مشاريع منابع النيل العليا كما اقترحها ميرودك مكدونالد ، فقد كان هناك اقتراح لمكدونالد أيضاً بتعلية خزان أسوان تعلية ثالثة يمكن أن ترفع طاقته التخزينية إلى ١٠ مليارات أى أكثر مما أضاف السد العالى إلى حصة مصر السنوية وهى ٧,٥ مليار . فإن قيل إن التعلية خطرة ، فقد كان من الممكن إقامة خزان ذى فتحات وعيون على غرار خزان أسوان نفسه ولكن فى موقع السد العالى ذاته ، بأبعاد أضعاف الأول وبأرباح أضعاف أرباح الثانى ، وبذلك يأخذ من كليهما محاسنه ومزاياه دون أضداده ومثالبه .

غير أن من الضرورى هنا أن نضيف أن هذه الاعتراضات قابلة بدورها هى الأخرى للجدل والنقد . فلقد تحققت لجان دولية من الخبراء الهيدرولوجيين وكذلك الاقتصـاديين من أن السد العـالى هنـدسياً واقتصـادياً كان أفضل البدائل المتاحة أمام مصـر ، كـما أثـبـت السـد نفسه بـعد بنائه خـطأ كثير من الاعـتراضات عـليه سواء هـندسيا أو هـيدرولوجيا .

ثالثاً ، من الناحية العملية البحتة ومن حيث المحصلة المائية الصافية ، فإن السد على عكس ما صور داعائياً محدود عطاؤه بدرجة لا تتناسب مع أبعاده وضخامته الهائلة وتكاليفه الباهظة ولا مع المشاكل والأخطار والملابسات التى اكتنفته فى الماضى والحاضر والمستقبل فضلا بالطبع عن الضجة والدعاية الداوية التى صاحبته . فللوهلة الأولى ، يبدو السد بسعته الخرافية حصيلة تتعدى أعراض أحلام مهندسى الرى التقليدية ، مقيسة مثلا بمستويات خزان أسوان والأولياء المتواضعة . على أن من الإنصاف والموضوعية بل الأمانة العلمية حين نقارن بين الطاقة المائية لكل من الخزان والسد أن نتذكر بالدقة الفارق بين التخزين السنوى والمستمر. فالأول إنما يمثل دخلا متجدداً ، حيث الثانى رأسمال تراكمى . أما أن يقال وحسب إن السد العالى يحقق ١٥٧ مليارا مقابل ٥ مليارات فقط لخزان أسوان ، فمقارنة خاطئة مثلما يمكن أن تكون مضللة أو مغرضة .

فاذا كان الخزان يوفر ٥ مليارات سنوياً ، فان إضافة السد العالى السنوية إلى مائية مصر ٧,٥ مليار فقط . أى ما يعادل مساهمة الخزان

مرة ونصف مرة لا أكثر ، أو مجموع ما كان يوفره خزان أسوان وخزان جبل الأولياء معا . وتلك هى الأبعاد الحقيقية والواقعية لوزن السد ودوره مائياً . ولعل هذه النقطة بالذات لم تبرز للرأى العام بما فيه الكفاية ، إن لم تكن قد حـــجبت عنه عمداً . وفى هذا يـقول وين أوين « لعلها هى ضخامة وأهميــة تلك المشاريع السابقة (خزان أسوان والأولياء) التى تستحق الأكثر أن تؤكد فى المقــارنة » . وعلى أية حال، فإن عطاء السد من الطاقة والكهرباء قد يفوق عطاءه من الماء نفسه . وحتى من ناحية الماء ، فإن عطاءه للسودان ضعف عطائه لمصر . أى أنه جاء لمصلحة السودان ولحسابه أكثر منه لمصلحة مصر أو لحسابها .

رابعاً ، من الناحية العملية والعلمية معاً ، فإن السد يثير من المشاكل أكثر مما يحل أو قدرها ، وحتى هذه الحلول ليست بالمثالية الكاملة ، بل إنه ليكاد يهزم أغراضه بنفسه . فعدا مشكلة النحر الخطرة ومشكلة الصرف الباهظة وسائر الآثار الجانبية العديدة ، فإنه لا يحقق هدف الوفرة المائية ولا الأمن تماماً . فلئن كان السد يوفر الحماية ضد

الفيضان الضعيف ، فقد اتضح أنه لايوفر الحماية ضد الفيضان العالى المتتابع إلا جزئياً . ولئن كان قد حاز الأفضلية على مشاريع البحيرات الاستوائية فى أعلى النيل لأنها لا تعطينا إلا المياه الرائقة دون مياه الحبشة الغرينية ، قدراً معيناً من مليارات الأمتار المكعبة ، فإنه بحشائش المجارى التى نشرها على امتداد مصر قد بدد نحو نصف هذا القدر إلا قليلا .

وليس رداً ـ يستطرد النقاد أصحاب هذا الرأى ـ أن يقال : إن الآثار الجانبية للسد متوقعة محسوبة وعلاجها معروف أو قيد البحث أو التنفيذ . فأنت بذلك إنما تعالج خطأ أكبر بسلسلة لا نهاية لها من الأخطاء الأصغر ، أى بسياسة الترقيع الجزئى المستمر . وحتى عند ذلك ، فان هذا كله يمثل إنفاقات وتكاليف متزايدة تسحـــب فى النهاية من مزايا وفوائد ووفورات السد نفسه ، بحيث تتضاءل اقتصاديته باطراد . فمثلا إذا كان المشروع أصلا قد تكلف بضع مئات من الملايين من الجنيهات، فيكفى أن نذكر أن مشاريع الصرف المرصودة حالياً تجرى فى بضعة بلايين من الجنيهات . أى نحو عشرة أمثالها .

خامساً ، واتصالا بالنقط السابقة . يلاحظ البعض أن السد العالى بكل ما يعنى ويمثل لم يكن له على الزراعة المصرية حتى الآن مثل ذلك الأثر الدرامى الهائل الذى كان لخزانى أسوان والأولياء رغم أن صافى ما يوفره سنوياً يعادل مجموع ماكان يوفرانه . وفى هذا يتساءل وين أوين ، لم لا ينبغى أن يكون لسبعة ونصف مليارات مكعبة ثانية من موارد المياه ، الفصلية ، ـ أى الصيفية ـ أثر على نمط استغلال الأرض يعادل أثر الأولى على الأقل فى ضخامته ؟ . ولا شك أن المفروض أن يثور السد العالى الزراعة المصرية تثويراً وكما لم يثورها أى مشروع سابق للرى الدائم . وهناك إجماع عام على أن ثورة زراعية جذرية ما لم تواكب ثورة الرى المتمثلة فى السد . غير أن السد نفسه قد لا يكون مسئولا عن ذلك ، وإنما هو قصور الزراعية ذاتها وتخلفهـــا . وعلى أية حال فلعل هذه الثورة المرتقبة مسألة وقت فقط .

سادساً ، وأخيراً ولكن ليس بالتأكيد ، فان السد يمثل مخاطرة كبرى تصل إلى حد المغامرة ، إن لم يقل البعض المقامرة . والإشارة هى بالطبع إلى احتمالاته المستقبلية الغامضة وكل ما يجازف به من تغيير

مجهول النتائج والمـدى فى طبيعة النهر والوادى ويتعلق بصميم الوجود الطبيعى لمصر ذاته . ولكن يرد أنصار السد على هـذا بالنفى . فعندهم أن « الآثار الجانبية » للسد إن هى إلا « كظل العمارة » ولا خطر على مصر أرضاً ووادياً ونهراً ونحراً . . الخ . الدليل على ذلك فى دفعهم أن الواقع قد كذب تباعاً كل توقعات ونبؤات المشككين القائمة فضلا عن مبالغاتهم المسرفة .

فهؤلاء مثلا قدروا فى ١٩٥٦ وقبل إنشاء السد أن النحر الشامل سيصل إلى ٥٤ متراً فى قاع المجرى ، وذلك على أربع دفعات بمتوسط ١٤ متراً كل دفعه ، وأن معظم هذا النحر سوف يحدث فى العامين الأولين من بناء السد . فلما بدأ إنشاء السد ومضت سنوات دون أن تتحقق هذه النبوءات ، عادوا فقالوا : إن القاع سوف ينخفض إلى عمق مترين بعد ٥ سنوات من التشغيل وإلى ٣ أمتار بعد ١٠ سنوات . فلما لم يحدث هذا أيضاً ، عادوا فى ١٩٧٦ فقالوا : إن ٨٣ ٪ من النحر الشامل سوف يتم بعد ١٧ سنة من بدء التشغيل أى فى ١٩٨٥ ، وأن عمق النهر بين إسنا ونجع حمادى سيصل إلى ٦,٦٥ متر ، وخلف قناطر نجع

حمادى سيكون ٨,٤ متر ، وخلف قناطر أسيوط ٦,٤ متر . غير أن الذى حدث بالفعل أن معدلات النحر السنوية لم تتجاوز حالياً ٢,٢ سم بين أسوان وإسنا ، ٣ سم بين إسنا ونجع حمادى ، ٢,٥ سم بين نجع حمادى وأسيوط ، ٠,٤ سم بين أسيوط والقاهرة وهذا كله وغيره ما يؤكد سلامة مستقبل الوادى طبيعياً .

إزاء هذا الرد ، يعود البعض فيثير على رأس الأخطار الكامنة والمستقبلة قضيتين تضربان فى صميم الأمن القومى المصرى ، إن لم يكن الوجود القومى المصرى ذاته . فأولا ، هناك التهديد بالدمار الذى ستعيش مصر تحت رحمته إلى أجل غير مسمى . فبحيرة ناصر- ١٢٠ مليار متر مكعب على الأقل- ككتلة مائية جبارة تستقر فى أقصى جنوب مصر وعلى أعلى ارتفاعها أى على كتفها أو رقبتها أو رأسها هى ، أشبه ما يكون بقنبلة ذرية معلقة فوق رأسها قد تنفجر فى أى لحظة ، ، إذ ، لو حدث ما يؤدى إلى انسياب المياه بلا رابط من البحيرة ، فان التخريب الذى تحدثه فى مصر سيكون أضعاف أضعاف ما أحدثته قنبلة هيروشيما ، . وفى هذا الصدد ، فلقد أثبتت الأبحاث أن منطقة

البحيرة قد أخذت تتعرض للزلازل الموضعية نتيجة لثقل كتلها المائية الهائلة .

إلى جانب هذا الخطر الطبيعي الباطني أو الأرضي ، هناك خطر ضرب السد بالقنابل من الجو في الحروب . وليس سراً أن هذا التفكير قد خامر أذهان العدو الإسرائيلي في وقت ما في السنوات السابقة . ومهما كثفنا من حلقات الدفاع الجوي الفائق التطور حول السد . فإنه لا يستبعد الخطر تماماً . ومما له مغزاه أن الخبراء السوفييت الذين تولوا بناء السد نصحوا مصر بتفريغ بحيرة ناصر بمعدل ٦٠٠ مليون متر مكعب في اليوم لتصفيها بسرعة في حالة الحرب أو التهديد بها ، رغم أن هذا المعدل جدير بأن يخرب الوادي والمجرى كله شمال السد .

والخلاصة الصافية أن السد العالي وإن كان قد تحاشى الموقع خارج الحدود وحقق شرط الموقع الوطني ضماناً للأمن القومي سياسياً ، فإنه لم يفلت من أخطار الأمن القومي لا طبيعياً ولا عسكرياً .

ثانياً ، هناك السؤال المؤجل عادة . لأنه بعيد الأمد نسبياً ، وهو : وماذا بعد السد العالي ؟ ماذا بعد أن تمتلىء بحيرة ناصر إلى قمتها

بالطمى وتتحول إلى دلتا مرئية بارزة بعد ٥٠٠ سنة كالمقدر ؟ ثمة احتمالان لا ثالث لهما : إما أن يشق النيل مجرى جديداً له إلى البحر المتوسط عن طريق الصحراء الغربية ، أى شيء كتحقيق مخيف مروع لنهر بلانكنهورن الجيولوجى الافتراضى « النيل الليبى » الغابر ، وإما أن يقتحم الوادى ليحتله من جديد حيث لن يكون له مكان فى نظام الحياة القائم فيه حينذاك .

وفى معرض دراسته التى أوردها فى نفس هذا الجـزء من موسوعته ، والتى تناول فيها موضوع « قناة السويس » فى السياسة والاستراتيجية ، تحدث عن نتائجها وآثارها ، فقال :

أما عن نتائج القناة الاقتصادية ، فمن السهل أن نقول إن أوربا الغربية تدين للقناة بالجزء الأكبر من طفرتها الصناعية والحضارية الحديثة حتى وصلت إلى درجة التشبع وما فوق التشبع . over - industrialization فهى التى قربت ثروات المستعمرات والمداريات ووضعتها عند أطراف أصابعهما بأرخص التكاليف والأسعار. وهى التى قدمت لها الخامات والأسواق فى عصر الفحم فى القرن

التاسع عشر ، وهى الآن التى تقدم لها الوقود مع الخامات مع الأسواق جميعا فى عصر البترول فى القرن العشرين . هكذا إن لم يكن الغرب يدين للقناة بثورته الصناعية الأولى ، فإنه بلا ريب يدين لها بثورته الصناعية الثانية . وإن لم يكن يدين بأى منهما لها فى البداية ، فهو بكل تأكيد يدين لها بتعميمها فى النهاية .

بل لقد يقال ، أكثر من هذا ، إن القناة مسئولة عن مساعدة الغرب على نزح ثروات مستعمرات الخام ووأد فرص التصنيع بها . غير أن مصر نفسها ـ ودعك من فضلها المجحود ـ كانت ضحية مماثلة . فلقد ظلت القناة معزولة عن الاقتصاد المصرى لاتساهم فيه الا رمزاً ذلك لأن مصر لم تكن تملك القناة وظلت مجرد « متفرجة » لا مستثمرة . فمثلا بلغ دخل القناة فى ١٩٥٥ نحو ٣٥ مليون جنيه . كان نصيب مصر منها مليون جنيه فقط . أى ٣٪ تقريبا . هذا بينما عاد الاستعمار ، وخاصة بريطانيا التى ورثت من قبل موقع مصر الجغرافى فى الوسيط ، ليسرق موقعها الحديث .

ولكن منذ « الاسترداد » ولأول مرة منذ حفر القناة تحققت تلك

العلاقة المسلوبة ، ولم يعد شك فى خطورة دور الموقع فى البناء الاقتصادى المصرى . فمنذ التأميم ، وقبل الإغلاق ، ودخل القناة الخالص يقفز بانتظام ، فكان يطفر بمعدل ١٠ ملايين جنيه فى بضع سنين ، حتى كانت تضخ فى الاقتصاد القومى ٩٥ مليون جنيه سنة ١٩٦٦ ـ عملة صعبة خالصة . فإذا علمنا أن محصول القطن لم يكن يغل أكثر من ذلك كثيراً جدا ، أدركنا أن هاهنا فى الموقع ثروة قومية ثانية ومحصولا وطنيا أساسياً .

وإذا علمنا بعد ذلك أن هذه الحصيلة كانت توجه وجهه بناءة هى السد ـ وقد أشرنا من قبل إلى العلاقة الأسية بين عملية القناة وعملية السد ، سياسيا ، واستراتيجيا ، تآمراً استعماريا ونضالا وطنيا ـ أدركنا أننا بهذا كنا نوظف القناة على النيل ونستثمر الموقع ، الذى هو بطبيعته عنصر خارجى لا يمكن التحكم فيه تماما ، فى الموضع الذى نملكه مباشرة . ونحن بهذا لم نكن نكثف اقتصاد الوادى فقط وإنما كنا نعمق أساسه أيضا. وبهذا أيضا فإذا كان الموضع ـ الوادى ـ قد حقق الموقع ـ القنال ـ بعماله ومائه وسكانه ، فقد بدأ الموقع الآن يرد دينـه إلى الموضـــع .

تطور قناة التأميم

السنة	عدد السفن والناقلات	الحمولة الصافية بالطن	الإيراد بالمليون جنيه
١٩٦٠	١٨٧٣٤	١٨٥٣٢٢٠٠٠	٥٠
١٩٦١	١٨١٤٨	١٨٧٠٥٩٠٠٠	٥٢
١٩٦٢	١٨٥١٨	١٩٧٨٣٧٠٠٠	٥٤
١٩٦٣	١٩١٤٦	٢١٠٤٩٨٠٠٠	٧١
١٩٦٤	١٩٩٤٣	٢٢٧٩٩١٠٠٠	٧٨
١٩٦٥	٢٠٢٨٩	٢٤٦٨١٧٠٠٠	٨٦
١٩٦٦	٢١٢٥٠	٢٧٤٤٦٦٠٠٠	٩٥

غير أن علينا بعد هذا أن ندرك تطور وظيفة القناة عبر تاريخها المفعم . فلقد بدأت القناة واستمرت طويلا كحلقة الوصل بين الغرب والشرق الأقصى ، ولكن بين بريطانيا والهند بخاصة . بيد أنها مذ الحرب العالمية الثانية تقريباً، ومع تفجر البترول فى الشرق الأوسط ، أصبحت حلقة الوصل بين أوربا الغربية بعامة وبين الشرق الأوسط بخاصة ، أكثر منها بين بريطانيا بخاصة وبين الشرق الأقصى بعامة .

وأهم من ذلك كما رأينا أن القناة تحولت من شريان الإمبراطورية التقليدى إلى دور شريان الزيت . فلقد كانت حركة البترول فى القناة تمثل تقليديا أكثر من ٧٠ ٪ من مجموع الحمولة العابرة ، بينما كانت هى بدورها تحتكر نقل ٧٠ ٪ على الأقل من بترول الشرق الأوسط المتحرك غربا .

وبطبيعة الحال فلقد عكست القناة نفسها هذا التطور الجـذرى . فإلى ما قبل عصر البترول وأثناء عصر الفحم ، كانت تجارة الشمال تتألف أساسا من المصنوعات ولكن تكتمل بقدر معلوم من صادرات الفحم ، خاصة من بريطانيا ، « فحامة العالم » حينذاك ، وكان هذا الفحم يذهب إلى بلاد الجنوب لأغراض الصناعة والأغراض المنزلية وكوقود للسفن البخارية على طول الطريق البحرى .

ولكن الطريف أن هذا النمط السلعى قد انقلب رأساً على عقب بعد البترول . فقد حل البترول من الجنوب محل الفحم من الشمال ، وبدلا من ذيل القائمة الذى كان الأخير يحتله ، احتل الأول الرأس بل أصبح هو فى الحـقيقة كل شىء فى حـركة القـناة تقـريباً وذلك عـلى حساب

« البضائع الجافة » ، بينما أصبحت القناة نفسها فى الواقع قناة البترول فى الدرجة الأولى حتى باتت العلاقة بينهما علاقة مصير عضوية كتلك التى بين منابع النهر وروافده وبين فروعه ومصابه . والحق أننا نستطيع بطريقة ما أن ننظر إلى تدفق البترول عبر القناة كتدفق نهر حقيقى ، نهر البترول ، نهر صحراء العرب الوحيد ، له منبعه ومصبه ومجـراه : المنبع الأساسى هو الخليج العربى . والمصب الأسـاسى هو أوروبا الغربية ، والمجرى الأساسى هو طريق السويس .

وهكذا أيضاً نشأ « زواج اقتصادى » وثيق بين بترول العرب وقناة العرب ، وكانت القناة بلا جدال أهم ممر عالمى استراتيجى لأهم سلعة استراتيجية فى العالم وفى ظل هذه العلاقة العضوية الحاسمة والحتمية والمخصبة باتت تنمو مع البترول صعدا فى علاقة طردية موجبة ، حركة ودخلا ، عمقاً واتساعاً ، لا سيما بعد معركة التأميم التى نقلت القناة إلى السيادة والملكية المصرية المطلقة فبدأت معها مشروعات التوسيع الطموح التى استهدفت مضاعفة طاقة القناة إلى أقصى حد ممكن .

ولقد جاءت حركة البترول المتسارعة لتعطى القناة بطبيعة الحال دفعة عظمى جديدة ، جددت شبابها مرة أخرى ، وجعلت منها لأول مرة مصدراً هاماً من مصادر الدخل القومى ، بحيث يمكن القول : إنها أصبحت بمثابة واد آخر مصغر أضيف إلى الوادى الأخضر . إن يكن النيل ، بعبارة أخرى ، شريان مصر ، فقد أصبحت القناة وريدها . وبالتالى ـ نحن نخلص ـ فإن تكن القناة عنق مصر استراتيجيا ، فقد أصبحت كذلك حبل الوريد اقتصاديا . وتلك فى مجملها بلا زيادة ولا نقصان هى مكانة القناة ومكانها فى كيان مصر فى السلم وفى الحرب .

ورغم تعاظم دور القناة ودخلها المطرد ، إلا أنه للأسف أخذ يتضاءل نسبياً إذا ما قورن بمجمل تدفق عائدات وأرباح بترول الخليج ، وذلك كنتيجة لتغير العلاقة بين القناة والخليج . وقد تزايد هذا الاتجاه مع الطفرة الهائلة ثم المذهلة فى الوضع إلى أقصاه بعد حرب أكتوبر التى دفعت بأسعار البترول إلى آفاق لم تكن متصورة قط من قبل . ولم يعد هناك الآن تناسب أو مجال للمقارنة بين دخل القناة المحدود الذى لا يتعدى سقفه المليار وبعض المليار دولار مؤخراً ، وبين دخل بترول

الخليج بأرقامه الفلكية التى تدور الآن حول مئات البلايين من الدولارات .

أما موقع القناة التقليدى والراهن من الدورة الدموية للبترول فى العالم بالتفصيل فتوضحه مجموعة الحقائق والأرقام الآتية . فى ١٩٧٣ بلغ إنتاج الشرق الأوسـط حـول الخـليج أكثر من ٧٠٠ مليون طن تمثل نحو ٣٧ ٪ من الإنتاج العالمى ، ونحو ٤٣ ٪ من الصادر العالمى . أما عن استهلاك أوربا الغربية من البترول ، الذى وصل فى ١٩٧٠ إلى نحو ٥٩٠ مليون طن، فإن حوالى ٣٥٠ مليون طن منها أى زهاء النصف (٤٦ ٪) أتى من الخليج العربى . أما عن القناة ، ففى آخر عام قبل إغلاقها ، أى فى ١٩٦٦ ، كان ٩٥ ٪ من البترول المنقول عبرها يأتى من الخليج العربى ، بينما ذهب ٩٢ ٪ من بترول القناة إلى أوربا الغربية وحدها ، والباقى إلى الولايات المتحدة وكندا ، وفى الوقت نفسه قدم البترول ٧٣ ٪ من إيرادات القناة .

فى أبسط صيغة تخطيطية إذن ، تتحدد استراتيجية المواقع الحاسمة فى جغرافية البترول فى العالم القديم فى مثلثين أساسين ، واحد للإنتاج

والاستهلاك ، وآخر للاستهلاك والنقل . فالأول رؤسه الخليج العربى كقطب الاحتياطى والإنتاج والصادر ثم أوروبا الغربية من ناحية كقطب الاستهلاك الأساسى لبترول الشرق الأوسط ، وأخيراً اليابان من الناحية كقطب الاستهلاك الثانى . أما المثلث الآخر فرؤسه قناة السويس كمركز النقل الأول . ثم أوروبا فاليابان . فإذا جمعنا المثلثين معاً فإنهما يندغمان فى شكل معين أو شبه منحرف تقريباً أطرافه هى رباعية اليابان ـ الخليج ـ القناة ـ أوروبا الغربية . وتلك هى الدائرة الكهربائية الأساسية لحركة البترول فى نصف الكرة الشرقى .

بهذا الهيكل الأساسى فى الذهن . يمكننا الآن أن نفهم كل التطورات التى تعرضت لها القناة فى السنوات الأخيرة وعلاقات التنافس أو التوازن المحيطة بها . فالقناة طريق ، وكل طريق فـهو موقع ، وكل موقع فهو نسبى ، وكل نسبى فهو متغير . وذلك بالدقة صميم الموقف ومفتاحه . فكل طريق جغرافى جديد أو بديل . وكل وسيلة تكنولوجية جديدة لنقل البترول ، وكل تغيير فى توزيع حقول إنتاج أو سوق استهلاك البترول ، فضلا عن كل بديل مستحدث للبترول نفسه ، أو بعبارة شاملة كل تغيير فى جغرافية النقل والإنتاج

والاستهلاك ، يعد بمثابة متغيرات تنعكس آثارها مباشرة على القناة إن سلباً أو إيجاباً . وتعيد تقييمها إلى حد أو آخر ، بل ويمكن نظرياً أن تنتهى إلى عملية أسر نقلى خطيرة . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نحصر التحديات الرئيسية التى تواجه القناة فى ثلاث : متغيرات البترول . الأنابيب ، الناقلات العملاقة .

وقد تناول أساتذة الجامعات العربية والأوروبية ومراكز البحوث التابعة لها ، هذه المؤلفات بالدراسة المتعمقة والتحليل العلمى ، وهو ما حدث فى جامعة الجزائر، وجامعة ماكجيل فى كندا ، وجامعة فرايبورج فى ألمانيا ، ونشرت ابحاثهم ومقالاتهم بالمجلات والدوريات العلمية .

لم يكن أخـى يحتـفى بالجـوائز أو الأوسـمة رغم أنها كانت تأتى إليه تجرجر أذيالها ، دون أن يسعى إليها أو ينتظرها .

وأذكـر أننى كـنت فـى مساء يـوم من أيام شهر يونيه فى مكتبى بجريدة « الجمهورية » ، فإذا بالسيدة الفاضلة الأستاذة نفيسة الصريطى، التى كانت تعمل محررة بها ، والتى كان والدها زميلا للوالد فى المملكة العربية السعودية ، تقول لى : مبروك ! لقد حصل دكتور جمال حمدان على جائزة الدولة التشجيعية ! فهرولت إلى جمال فى الدقى لأزف إليه النبأ السار . واستقبلنى بابتسامته المعهودة ، وقال لى بهدوء : لقد عملها الدكتور حزين ! ولما وصلته شهادة الجائزة أهداها إلى العائلة ، وتم بروزتها ووضعها بغرفة الاستقبال ـ ومازالت حتى الآن !

وحضـرت إلـى القاهـرة فـى صيـف سنـة ١٩٨٦ ، وكـان جمال قد حصـل علـى جائــزة الدولـة التقديرية فى العلوم الاجتماعية . ولما

قدمت له خالص التهنئة على هذا التقدير الذى صادف أهله ، قال لى والابتسامة لا تفارقه : لقد رفضتها يا عزيزى ، وأعدتها بخطاب إلى الراسل !

والواقـع أنه كان يرفض كـل ما يأتى من أى جهة رسمية ! وكان قد أدلى بعدة أحاديث عن هذه الجائزة نشرت فى حينه .

ومنحـــة أمير الكـويـت فى نفس العام ، أى عــام ١٩٨٦ ، جائزته للنقد العلمى ، وقدرها أحد عشر ألف دولار أمريكيا ، فتقبلها من المبعوث الكويتى الذى زاره فى بيته المتواضع ، وأخذت له بعض الصور التذكارية وهو يتسلمها . وفى اليوم التالى أرسل قيمة هذه الجائزة إلى شقيقى الأصغر اللواء عبد العظيم - وهو من أبطال حرب اكتوبر - لتوزيعها على شقيقاتنا وأبنائهن ...

هذا وقد منحته الدولة وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٨ ، ولكنـه لم يتسلمه ، وأرسل إليه مع مخصـوص عند تشييع جنازته ... !

وكان أخى عدوا لدودا للصـهيونـية والاستعمار الأجنبى ـ أيا كان وجه هذا الاستعمار . وكان دائـما يحـذر من أن النـفوذ الأجنبى أيا كان لونه ودينه ، والصهيونية ، والتمزق العربى ، وضعف العالم الإسلامى ، وفقدان العدل الاجتماعى ، والطغيان السياسى ، هى ألد أعداء مصر . وقد تناثرت أفكاره ووجهات نظره حول هذه الأمور فى معظم كتاباته . وكانت قضية فلسطين هى قضيته الأولى وشغله الشاغل . وصرح بأن الكارثة التى تعرضت لها فلسطين على يد الصهيونية الإسرائيلية هى سابقة ليس لها مثيل قط فى تاريخ العالم الحديث ، ولا العالم الإسلامى ولا العالم الثالث . وكان يرى أن الخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب ، وأن تهديدها لا يقتصر على العالم العربى وحده ، وإنما يمتد إلى العالم الإسلامى أيضا وضمنا . وكان يندد بهذا وبما يحاك لنا فى الخفاء والعلن ، ويقول : إن الصهيونيات اليوم هى أكبر خطر وتحد يواجه العالم العربى ، وأن تحرير فلسطين « هو » وحدة العالم الإسلامى السياسية ، وأن وحدة العالم الإسلامى إنما « هى » فلسطين !

وكان يؤمن بالعروبة ، ويعتقد أن القومية العربية ـ مخالفا فى ذلك

الأستاذ ساطع الحصرى ـ نظرية نابعة من أرض الواقع بكل إيجابياته وسلبياته ... وعلى العرب أن يقوموا بتطويرها علميا وعمليا لتواكب المتغيرات العربية والعالمية . وقد تبلور هذا الاتجاه وتجسد فى مؤلفاته العديدة التى تناولت عالمنا العربى بالدراسة والتحليل . وكان يؤكد فيها على أن مركز ثقل العروبة البشرى والسياسى والعسكرى يوجد فى مصر ، قلب العروبة النابض ، وأن الطبيعة زودتها وحبتها بكل الصفات التى تحتم عليها أن تقوم بدور الزعامة الذى لايعتبر تشريفا أو تخليدا بل هو تكليف من الجغرافيا وتقليد من التاريخ ، وليس أبهة بل مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة ...

كان هو أول من تكلم عن احتمالات تفكك الاتحاد السوفيتى السابق ، وحذر من عواقبه وأثاره . كما حذر فى كلامه عن مدينة القاهرة ، من الانفجار السكانى فيها ، و كان ذلك عام ١٩٦٩ ، عندما كان سكانها لا يزيدون على خمسة ملايين نسمة !

لقد فتح أبوابا جديدة للمعرفة لم تطرق من قبل . وكان يوظف الجغرافيا لغايات أسمى ، مازجا بين فلسفتها وفلسفة التاريخ ، وبينها وبين علوم وفنون شتى لكى يصل إلى نوع جديد من المعرفة بأسلوب

مبتكر يخرج عن المفهوم التقليدى للجغرافيا ، وهى تخصصه الدقيق .

ولم ينجح فى ذلك إلا بفضل عزلته التى استثمرها أحسن استثمار ، فأبدع وابتكر بشكل فردى وفريد فى آن واحد ! وكان رغم عزلته أكثرإدراكا و تفاعلا مع الواقع ومع الأحداث، وأغزر انتاجا وأصدق قولا! فقد كان حاد الملاحظة ، سريع الفهم ، نافذ الذكاء . وكان صارما فى حياته كما كان صارما فى منهجيته العلمية ، لا يسمح بأى نوع من الانفلات أو التسيب . وكانت له قدرة خارقة على التحـليل العميق وعلى التوليف السليم ، واستشـراف المستقبل . وكان لايبـدى رأيا فى موضـوع إلا بعد دراسات مستفيضة والرجوع إلى مصادره ومظانه . وكان فى كل ذلك ثابتا على مبدأه ، لا يتحول ولا يتغيّر . وكان يتحلى بصفات هامة هى التى تجعل من المثقف مثقفا على أرفع المستويات ، فقد كان دائما طُلعة ، طالبا للحقيقة مهما كلفته ، طارحا للأسئلة ومحاولا العثور على إجابات لها . وكان لا يلبث يلح فى البحث ، ويلح فى السؤال إلى أن يعثر على بغيته ، فتتهلل أساريره وتغمره السعادة ...

ورغم تواضعه الجم ، فإنه كان معتدا بنفسه وبعلمه . حـدث أن نظـمت جـريدة « الأهــرام » القاهـرية نـدوة لنـقد مـا كـتبه عن الـرى

ومياه النيل ، ونشرت أبحاث هذه الندوة على صفحة كاملة كلها هجوم عليه . فهب للدفاع عن نفسه ، وذهب إلى « الأهرام » وسلّم من قابلـه هنـاك وجهـة نظره كتـابة ، وهى تتلخص فى أن كـل مـا قـاله بهذا الخصوص إنمـا بنـاه علـى مـا نشـرته جريدة الأهرام ، وأنه ذكر ذلك صراحة فى الحواشى .

وكـانت جـريدة الأهــرام قد عرضت عليه أن يوافيها بمقال أسبوعى ، ولكنه اعتذر عن ذلك لكثرة أعماله .

ومن الصعب ، بل من المستحيل ، حصر كل أفكاره ونظرياته فى هذه العجالة ، فالأمر يحتاج إلى قراءة متأنية ومتعمقة لكل مؤلفاته وأبحاثه ، وإلى تأمل الرؤية العميقة التى قدمها ، والتوقف أمام تشخيصه لكل القضايا والمسائل التى تهم الإنسان المصرى بصفة خاصة ، والإنسان العربى بصفة عامة . فقد كان لا يستخلص مما يكتبه أحكاما أو أقوالا مبتسرة غامضة يتأولها كما كان الناس يتأولون أقوال الكهنة ، ولكنه كان يتبين بنور عقله ويستشف بقوته المبصرة ما سيحدث فى المستقبل . ولا نزاع أن تقديره للغايات البعيدة وحسابه للمقدمات التى تؤدى إليها ، والحيرة التى سيتعرض لها عند كل رأى يبديه ، كلها أمور

كانت ترهقه فى آخر الأمر . فالعلم عنده لم يكن مجرد سرد أو إثبات وقائع أو تقرير حقائق ، ولكنه ربط الواقع والحقائق بعضها ببعض على نظام متسق ومطرد يصدق على أوسع مدى . والاتساق والاطراد والشمول صفات لايبلغها العالم إلا عند تمام إدراكه لأكبر عدد من الظواهر المتشابهة والمعارف المتكاملة .

كانت أطول فترة عشناها معا هى الفترة التى امتدت من أيام طفولتنا وحتى صار كل منا شابا يافعا ، فتفرقت بنا السبل وتشعبت بنا الطرق ، ولكننا كنا دائما نلتقى على الحب والشوق .

ولا تخلو هذه الفترة من ذكريات ما زال بعضها يعلق بذاكرتى ومخيلتى .

فكان والدى - مع صغر سننا - يحثنا على الصلاة ، ويرغبنا فى الذهاب إلى الجامع لصلاة الجمعة مع الجماعة . وطلبت من جمال أن يصحبنى معه إلى الجامع لتأدية صلاة الجمعة ، وكانت أول مرة لى ، فرحب بذلك وأشرف على وضوئى وملابسى - فهو شقيقى الأكبر ! - ثم توجهنا إلى جامع فطين باشا بشارع التوفيقية - وهو مكان يقع على بعد أمتار من منزلنا - وهناك وقعت فى المحظور ، وسهوت عن الصلاة لحظة ، فخلطت بين السجود والركوع ! فأمسك بيدى بشدة ، ونظر إلىّ

نظرة اعتدلت بعدها فى صلاتى ! ولم أسلم من التأنيب بعد الصلاة !

وأذكر أننا لما كنا فى المدرسة الثانوية ، أرسلنا والدى بإيعاز من زميله الأستاذ عفيفى إلى منزل هذا الأخير لحضور درس الدين الذى كان يلقيه على شبان الحى . وذهبت مع أخى إليه ، فوجدنا هناك قرابة عشرة شبان ، ثم وزع علينا الأستاذ عفيفى الأقلام والأوراق ، واستمعنا إلى درسه ، ففهمنا منه أنه عضو فى جماعة الأخوان المسلمين ، وأننا إذا ما واظبنا على الحضور ، فإننا سنصبح أعضاءً فى تشكيله الذى كلف بتدريبه وتأهيله . ولما حان موعد الدرس الثانى ، أفهمنى والدى بأننى مازلت صغيرا وأن أخى جمال هو الذى سيذهب إلى هناك . وحمدت الله لأننى لم أكن قد فهمت أى شىء مما قاله الأستاذ عفيفى فى درسه الأول ، وربما شعر بذلك وكلمّ والدى فيه ، وأن يقتصر الحضور على أخى جمال . ولكنه بدوره أصر على عدم الذهاب بحجة أن لا وقت لديه ، وأنه مثقل بالدروس التى عليه أن يستذكرها !

ولما كبرنا وذهب كل منا إلى حال سبيله ، وباعدت بيننا هموم الدنيا وشواغلها ، وأسفارى الدائمة خارج البلاد ، كنت أتلهف على رؤيته للاطمئنان عليه وعلى أحواله كلما عدت إلى القاهرة .

وحـدث فى إحـدى المرات ، وكنــت أزوره مساءً فى فصل الشتاء فى بيته بالدقى ، وكنا نتسامر فى هدوء الليل ، فإذا بصوت بائع الفجل يقطع هذا وهو ينـادى على بضاعته : ريّان يا فجل وراور يا فجل ! قطع أخى الحديث ، ونظر إلىّ قائلا : تصور أنه يسير فى الشوارع فى عزّ البرد ، وأراهنك أنه أيضـا يسير حافيا ، وهو ما يدل على أنه فى منتهى الصحة ! وأضاف : ليته يبادلنى صحته ويأخذ جميع شهادتى ! وكان يعانى فى ذلك الوقت من الآلام بسبب احتقان فى الأمعاء الغليظة .

وإلى جانـب هوايته لسماع الموسـيقى وحـضور أمسياتها فى جمعية ، « الجرامـفون » فى كليته ، كان مولعا بحضور المزادات العلنية ، وصحبته مرة إلى إحدى هذه المزادات فى جاردن سيتى حيث كان يجرى بيع محتويات فيلا أحد العظماء ، وكان يتوقف أمام قطع الأثاث والسجاجيد شارحا لى عصورها ومواطن صنعها !

وكثيرا ما لجأت إليـه لاستشارته وأخذ رأيه فى بعض شئونى ، وكان رحب الصدر ، طويل الأناة . وكنت قد حضرت مرة إلى القاهرة من باريس ـ حيث كنت أعمل وأقيم ـ لأستشيره خصيصا فى موضوع

رسالتى لدكتوراه الدولة الذى سجلته فى جامعة السربون . وقد ورطنى أستاذى المشرف على الرسالة باختيار موضوع صعب وشائك هو موضوع « البدو فى مصر فى العصور الوسطى » ، وهو عبارة عن دراسة تاريخية للقبائل البدوية التى دخلت مصر منذ الفتح العربى وحتى الفتح العثمانى لمصر . وأسقط فى يدى بعد أن تبين لى أن معلوماتى ومعلومات أستاذى لاتفى بالغرض ، وأن القلقشندى والمقريزى لا يكفيان لكتابة رسالة دكتوراه دولة ! ذهبت إليه وأنا أعلم أن هذا لـيس بتخصصه الدقيق ، وما أن عرضت عليه قضيتى حتى هون علىّ الأمر ، وزودنى بقائمة للمراجع ، ونصحنى بالنفس الطويل وعدم الاستعجال لأهمية الموضوع وريادته . وقد تلقى أخى نبأ حصولى على درجة دكتوراه الدولة مع مرتبة الشرف بفرحة عارمة وأرسل لى خطابا يهنئنى فيه على هذا الإنجاز الرائع . ولما نشـــرت رسالتى فى شكل مقالات بالمجلات العلمية الأوروبية ، أرسلت إليه بطبيعة الحال نسخا منـها ، فاقـتبس مـنها ما شاء له الاقتباس ، وأشار إليها فى الجزء الثانى من موسوعته « شخصية مصر » (صفحة ٣٠٠ وما بعدها) . وكـنت حـتى ذلك الوقت أكتب مـقـالتى و أوقعها بإمضاء

« عبد الحميد صالح » ، وهـو الاسـم الـذى عـرفـت به حـتى تـاريخ وفاة والدى ، عندما اضـطـررت إلـى إضـافـة اسـم « حمدان » ، وهو اسم العائلة ، إلى اسمى لإثبات الوراثة . وتم ذلك بناء على طلب وإلحاح أخى جمال .

وكانت زوجـتـى ، وهـى عـالـمة مصـريات فرنـسية ، وبعد أن وقفت على ما يتمـتع به جـمال مـن عـلـم غـزيـر وعـلـو كـعب فى كل ما يتعلق بمصر ، تعرض عليه بحوثها لأخذ رأيه قبل نشرها فى المجلات العلمية ، لا سيما ما يتعلق منها بسكان مصر فى عصر ما قبل التاريخ ، وبمشكلة التوحيد السياسى لوادى النيل . وقد وصلنا منه مرة تعليقات على بحث لها ، وجاءت فى أربع عشرة صفحة ، بلغة فرنسية لا تشوبها شائبة . (انظر آدناه) .

Chere Janine,

J´étais trés trep long . accepte , s' il te plait , mes ex-euses . Et aussi , une fois encore , mon pauvre français, si rude, pitoyable et même effroyable, sans mentionner les fautes innombrables .

J' inclus deux lignes en arabe paur Hamid .

Mes souhaits les plus chaleureux et cordiaux á tout le monde , et mille merci pour toute chose.

Gamal,

الأخ العزيز الغالى الدكتور عبيدة

مع كل الشوق والمحبة ، ورغم الوحشة الطويلة ، فهل بقى لى أو لك شيء يقال ؟ لقد أطلت الرغى على المسكينة العزيزة الست چانين ، ولكن ذنبها على جنبها ، إذ ما عسى أن يحدث إذا اجتمع جغرافى وأركيولوجى ؟

نحن بخير ، والجميع يفكرون فيك وفى الانتظار ، فإلى سبتمبر . راجين أن تكون والعائلة المقدسة فى أحسن صحة وحال . وبالمناسبة ، أين الجديد فى منشورات السنيور صالح الرومانى ؟ لعلك تتحفنا معك بآخر ما فى الجعبة !

لا تنس نفسك ، ولا تنسوا راحتكم وتمتعوا ببقية إجازة الصيـف قبل

أن يدهمنا جميعا الجنرال شتاء ... حتى اللقاء ، لك كل أشواقى ، لولو

وفى إحدى زياراتى له ، أخبرته بأننى قد تركت التدريس الجامعى ، وأصبحت أعمل خبيرا للترجمة لدى المنظمات والهيئات الدولية . ولما أظهر تعجبه من ذلك ، بينت له الأسباب وشرحت له أن هذا العمل إلى جانب أنه عمل محبب إلى نفسى ، ويتيح لى عيشة مريحة فى أوروبا لتربية أولادى ، فإنه يسمح لى فى الوقت ذاته بالقيام بأبحاثى وكتابة مؤلفاتى ، وربما التدريس من أن لآخر بالجامعات كأستاذ زائر . ولما اقتنع بكلامى ، نطق بلغة فرنسية سلسة المثل الفرنسى المعروف وترجمته : ليست هناك مهنة حمقاء ، ولكن هناك أناس حمقى ! وأضاف بالعربية : هل تعلم أن الدكتور لويس عوض عمل مترجما بالأمم المتحدة فى نيويورك عندما أخرجوه من الجامعة ! المهم هو ألا تتخلى عن أبحاثك ومؤلفاتك!

وكان أخى جمال ـ رحمه الله ـ لا يدع مناسبة من المناسبات السارة إلا وشاركنى فيها بعباراته التشجعية ومشاعره النبيلة . وقد تلقيت

منه فى يوم من الأيام خطابا رقيقا (انظر أدناه) ، وكذلك بمناسبة قيام الدكتور محمد عنانى بوضع مسرحيته « جاسوس فى قصر السلطان » التـى عرضـت على خشـبة المسرح القومى فى القاهرة ، والتى استوحاها من كتاب « التحفة الملوكية فى الدولة التركيا » لبيرس المنصورى ، الذى كنت قد حققته فى ١٩٨٧ .

٢٤ فبراير ١٩٩٢

الأخ العزيز الغالى الدكتور عبيدة

ألف تحية وسلام ، وألف شكر على خطابك اللطيف الذى طمأننا عليكم . نحن نريد لكم الصحة والسعادة والتوفيق جميعا . الجميع يهدونك السلام ، و يتطلعون إلى لقائك فى العيد كما ذكرت ، فأهلا .

بلّغ سلامى وتحياتى الخاصة والخالصة ـ أرجوك ـ لست الستات چانين هانم ، وإن شاء الله تتم العملية بنجاح ، وتعود إلى كامل صحتها ولياقتها ، لتفيض علينا بنشاطاتها وكتاباتها المتألقة .

كذلك أرجو للعزيز الأستاذ جلال (جلالو) التوفيق فى دراسته ، وينجح إن شاء . ومزيد التحية والتقدير للعزيز الشجاع الإستاذ كريم .

أرفق مع هذا قصاصة من « جمهورية » الأمس ، فيها خبر يسرّ ويسرك عن كتابك المحقق « تحفة الملوك » الخ .. مبروك ودائما بالنجاح .

حتى اللقاء ، كل أشواقنا ومحبتنا ،

لــولــو

و آخـر خـطـاب تلقيته منـه كـان فـى أوائل هذا العام ، وكان للسؤال عنا ، وهو الخطاب المنشور أدناه ، وقد جاء فيه :

العزيز الغالى الأستاذ عبيدة

أظن لم يبق لنا شيء نقوله بعد هذه الملحمة أو المطولة للست چانين هانم والأستاذ جلالو ! المهم أن تكون فى صحة والأحوال عال والشغل كويس . وخد بالك من نفسك وصحتك ، ولا تغرق فى العمل أكثر من اللازم .

نرجو أن يحقق جلال خططه فى المستقبل . وكنا سمعنا أن سيادتك كنت ستشرف هذه الأيام أو هذا الشتاء ثم علمنا أنك على سفر خارج

فرنسا . عسانا نراك ولو فى الصيف .

ترى ما أخبار مؤلفاتك القيمة الجديدة ؟

الجميع هنا يهدونك السلام ، وإن كانوا هم الذين على اتصال دائم بك تليفونيا .

نسيت أن أشكرك بشدة على كتابكم الرائع عن صور الفضاء ـ إنه كنز حقيقى .

لعلنا نسمع منك أو تكتب لنا بين الحين والآخر يا دكتور عبيدة .

حتى اللقاء كل اشواقى وحبى وسلامى وتحياتى ،

لولو

ملحوظة : اسم « عبيدة » الذى يتصدر الخطاب ، هو الاسم الذى كنت أعرف به بين أفراد الأسرة ، والذى أطلقه علىّ فى صغرى أحد مشايخ طنطا عندما كان فى زيارة لوالدى ، وذلك تيمنا باسم أبى عبيدة ابن الجراح ، أمين الأمة !

* * *

ويبدو لى أن ابتعاده عن الناس وعزوفه عن مقابلتهم ، قد أعطى

شعورا بأنه ينفر منهم ، كما أن تمسكه بالحق وتشبسه برأيه ، قد خلق انطباعا بأنه حاد الطبع ، صعب المراس . وقد ثبت لـى ذلك عندما كنت أسجل مع الأستاذ الكبير أنيس منصور كلمة حول كتاب ابن ظفر الصقلى « سلوان المطاع » ، وذلك في برنامجه « شيء من الفكر » . ودخلت إلى الاستوديو فى الموعد المحدد ، وكان الأستاذ أمين بسيونى موجودا ، فقد كان هو المشرف فى ذلك الوقت على هذا البرنامج . وعندما بدأنا ، قال لى الاستاذ أنيس بطريقته المهذبة : اتفضل يا دكتور! ولما كنت فى ذلك الحين لم أكـن قد حصلت على الدكتوراه بعد ، التفـت إليه مصححا ، وقلت له : إنـنـى لســت دكتورا ! فقال الأستاذ أنيس ، وربما قد شعر بنوع من الحدة فى ردى : ياسيدى تفاؤلا بمـا سيكون ! وأضـاف : هل طبعكم كلكم بهذه الحـدة فى العائلة ! أو عبارة مقاربة ، وكان يقصد جمال !

وعندما كنت في باريس بعـد حصولى على درجة الدكتوراه ، اعترضتنى بعض المسائل فى أبحاثى كان الدكتور عبد الرحمن بدوى قد عرضها فى مؤلفاته ، ووددت أن أستوضحـه إياها ، فاتصلت به تليـفونـيا بمقرإقامته الدائمة فى جناحه الخاص بفندق « لوتيسيا » ، ولما

عرّفته بنفسي ، قال : هل أنت أخو الدكتـور جمـال حـمدان ! فلما أجبته بالإيجاب ، قال : إياك أن تكون حاد الطبع وصعب المراس زيّه !

وتلك لعمرى فكرة خاطئة تماما ، فقد كان جمال فعلا شديد الاعتداد بنفسه وبعلمه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يحمل بين جنباته قلبا أبيضا ولسانا عفا وشفافية روحية كانت تزداد يوما بعد يوم ...

وظـل أخـى جـمـال ممسكا بقلمه حتى آخر لحظة فى حياته ، ولم يضعه إلا لدقائق معدودات ، ذهب فيها إلى مطبخه المتواضع ليعّد لنفسه قدحا من الشاى ... ولم يكن يعلم أن يد المنون كانت على موعد معه عندما انفجرت انبوبة البوتاجاز فى وجهه ، وأمسكت النيران بتلابيبه ... وحاول وحده إطفاء هذه النيران التى تكاثرت عليه ... فكانت الصدمة العصـبية أشـد من أن تحتمــل ، واقتربت النهاية وحان الأجل ... فودّع الدنيا فى غفلة من الزمن ، و دفن يوم الأحد ١٧ أبريل ١٩٩٣ ، بمقبرة العائلة بالبساتين ، وهى المقبرة التى بناها والدى بعد عودته من السعودية فى ســنة ١٩٦٦ ، ودفن بها سنة ١٩٨٢ عن نيف وتسعين سنة ، ولحقت به أمنا بعد ستة شهور . ويرقد جمال الآن بجـوار والديه ، وبجـوار من توفـاه الله من أخـوتى وأخـواتى ...

استقبل المثقفون في مصر والعالم العربي كتابات « جمال حمدان » بكثير من الحفاوة والترحيب بعد أن بهرتهم هذه الكتابات بأفكارها وأسلوبها وشموخها ومنهجيتها . فأشادوا به وبهذه الكتابات ، وكتبوا عنه وعن مؤلفاته ما يتعذر حصره في هذه الصفحات القليلة . وفي مقال له في جريدة المصور المصرية الأسبوعية ، كتب الأستاذ رجاء النقاش في سنة ١٩٨٢ ، يقول : « إنه (جمال) المثل الأعلى للإنسان المصري العربي المثقف في هذا العصر » . وكان هو أول من نادى بتكريمه ومنحه أعلى وسام في الآداب والفنون . ودبج الأستاذ يوسف القعيد ـ كان من المقربين إلى قلب جمال ومن المترددين عليه ـ عدة مقالات حلل فيها أفكاره وأعماله . وكان الدكتور أنور عبد الملك ـ وهو الاستاذ والعالم الكبير ـ لا يتكلم عنه أو يقتبس منه إلا ونعته بجمال حمدان العظيم !

وودع هؤلاء المثقفون جمال بما يليق به ويستحقه . فقد سطرت أيديهم باقة رائعة من المقالات ، كتبوها بعد أن أحسوا بالخسارة الفادحة التـى منيت بها مصر والتى فجرت فيهم هذه الينابيع من الحزن الملتهب ، فجاءت تعبيراً صادقا عن حبهم له وإكبارهم لعلمه وكفاحه وفكره . وإن دلت هذه المقالات والدراسـات علـى شىء فإنما تدل على أن البذور التى غرسها جمـال قد آتت أكلـهـا . وظلـت هـذه الأقلام منـذ وفاته وحتى يومنا هذا ـ وستظـل لسـنوات وعـقـود قادمة ـ تتـنـاول كـل أعماله وأفكاره وحياته . وفتحـت الصـحـف الـيومـية صـفـحـاتها لـهذه الكـتابات ، وخصصت المجلات الأسبوعية والدورية أعدادا كاملة عن « جمال حمدان » . كما بثت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية العديد من برامجها لهذا الغرض . وعقدت حوله الندوات فى المحافل الثقافية والجامعات .

وهيهات أن نلم بكل ما قيل أو كتب عنه ، فاقتصرنا هنا على اقتباس نبذ مما نشر ، على أمل العودة إلى الكتابات القيمة الأخرى التى نشـرت ، إذا ما أذن المولى ، وكان فى العمر بقية .

فقد قال الكاتب والمحـلل السيـاسى القـدير ، الأستاذ السيد يسن فى

جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٩٣/٤/١٩ ، وتحت عنوان : « جمال حمدان .. مؤرخا لشخصية مصر » ، « رحل المفكر المبدع الذى لا يقل تأثيره فى ميدان العلوم الاجتماعية عن تأثير مؤرخ فرنسا الكبير « بروديل » مؤسس « مدرسة الحوليّات » والذى أحدث أكبر ثورة فى علم التاريخ ، تماما مثلما أحدث جمال حمدان أكبر ثورة فى علم الجغرافيا ، لأنه حولها إلى علم اجتماعى موسوعى شامل ، واستطاع بذلك أن يعالج كل أمور مصر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والاستراتيجية ، معتمدا على أسلوب أدبى فريد ، يجعل صاحبه من كبار أصحاب الأساليب الرفيعة فى الأدب العربى المعاصر » . وكتب الأستاذ أنيس منصور فى هذا العدد ، و فى عموده اليومى « مواقف » يقول : «عاش غريبا ومات وحيدا .. يرحمه الله مات وحده .. مات كما تموت الشهب .. محترقاً فى السماء ، لا أحد رآه ، ولا أحد عرف كيف صرخ وكيف بكى ... وإنما سقط رمادا أضيف إلى تراب مصر ... يا أرض مصر قد مات فيلسوفك وشاعرك والشاهد على عبقريتك... »

وكتب الأستاذ أحمد بهجت فى صندوق الدنيا ، بجريدة الأهرام

الصادر فى ١٩٩٣/٤/٢٠ يقول : « كان د. جمال حمدان مثقفا موسوعيا ، وقد نجح فى توظيف ثقافته الرفيعة فى خدمة العلم ، كما كان له أسلوبه الأدبى المتميز .. »

أما الدكتور غالى شكرى ـ الناقد والعالم المصرى الكبير ـ فقد خصص حلقات ثلاث لجمال حمدان ، تحت عنوان : « مصرى من زماننا » ، نشرها الأهرام فى أعداده الصادرة فى ٢١ و١٩٩٣/٤/٢٨ ، ١٩٩٣/٥/٥ ، وهى تعتبر درة من درر النقد العلمى نقتبس منها هذه النبذة : « وسوف يكتب الكثيرون طويلا وعميقا عن شخصية مصر وجمال حمدان ، ولكن تحويل هذا الكنز من المعرفة الوطنية إلى جزء من الذاكرة الجماعية للشعب المصرى أمر مختلف . ولقد برهن الإعلام المرئى والمسموع ، وكذلك برامج التربية والتعليم على أن هذا « الأمر المختلف » بعيد المنال .. نتكلم ليلا ونهارا عن التنوير والوحدة الوطنية فتذكر أعلاما خفاقة فى سماء القرن الماضى أو بالكاد أوائل هذا القرن ، وننسى ما بين أيدينا فى حاضرنا من كنوز ، فشخصية مصر لجمال حمدان ملحمة حيّة عبقرية الفعل والعطاء فى التنوير والوحدة الوطنية . ولكننا نخفى ثروتنا الوطنية تحت البلاطة حتى إذا مـــا جاء الزلزال

تــوارت تحـت الأرض ... ثم أضاف : « وهكذا لم يكن جمال حمدان عالما فى الجغرافيا أو مفكرا من أبرز مفكريها فحسب ، وإنما كان مفكرا حضاريا صاحب وجهة نظر فى الحضارة الإنسانية عامة ، وفى تعدد الحضارات على اختلافها وتآلفها خاصة » .

وكتب الأستاذ القدير سلامـة أحمد سلامـة فـى عمـوده الصادر بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٣/٤/٢٢ يقول : « ... تجد قصة حياته (جمال حمدان) أزمة المتفوق والنبوغ والعبقرية حين تصطدم بما حولها من نكران وجحود ، فى مجتمع مثقل بمشكلات التخلف والمنافسات والحزازات الصغيرة ... وعلـى الرغـم مـن عـزوف جمال حمدان عن الشهرة والذيوع ومقاومته لكل محاولة لإخراجه من عزلته ، إلا أن كتاباته وكتبه فى تحليل « شخصية مصر » جغرافيا وسياسيا وبشريا .. وضعته رغـما عن كل شىء علـى القـمة مثالا يحتذى لأجيال الحاضر والمستقبل .. ونموذجا فريدا لا يتكرر للذين يعملون فى صمت وتبتل .. يموتون فى عشق مصر دون مقابل ودون انتظار حتى لكلمة ثناء أو شكر ، رحمه الله » .

وتحت عنوان « أسبوعيات » التى صدرت فى عدد الجمعة من

جريدة الأهرام فى ١٩٩٣/٤/٢٣ ، كتب الأستاذ الدكتور عمر الفاروق تحت عنوان : حمدان .. عبقرية الإنسان .. والمكان « يقول : « يطوف الحديث .. يشرق ويغرب .. ثم يستقر عند حمدان .. فيعلو ويحلو .. وتتفجر محبته من العقول ، فى كل ندوة .. فى كل رسالة .. فى كل كتاب .. يقرر حمدان .. يذكر حمدان .. يشير حمدان ، تزهو به الجغرافيا وتتنازعه العلوم ، هل هو جغرافى أم فيلسوف ؟ أم موسيقار يعزف بالسطور ، لابل هو روائى يكتب دراما المكان ، الغائب الحاضر هو .. يتساءل عنه الجميع .. أين حمدان ؟ معتكف هو فى شقته من سنين لا يزال ولا يزال ، نحيلا .. خفيف شعر الرأس .. لامع العينين ، مترفعا فى تقشفه عن الدنايا والقشور .. زاهدا بمعاشه البسيط ، وحيدا يقرأ ويكتب ويعزف على العود حكمة أم حساسية ؟ » . و ختم كلمته قائلا :« وداعا يا حمدان .. وشكرا لما أنجزته نيابة عن عشرات العلماء.. وعذرا أن تركناك وحيدا .. »

وفى كلمته « شوارد » التى كتبها الأستاذ الدكتور عبد العزيز شرف بإمضاء « سندباد » فى عدد الأهرام الصادر فى ١٩٩٣/٤/٢٣ ، قال : « كان صوت جمال حمدان حين خرج من صمته بكتابه الأشهر

، شخصية مصر ، من أهم بواعث المقاومة فى مواجهة أعتى تحديات العصر ، التى واجهها هذا الجيل الذى ظل يبحث عن وطنه مصر ، ويجدّ فى كشف عن مقوماته وخصائصه وإمكاناته الطبيعة والبشرية .. وختم كلمته بأبيات الشعر التالية :

وليس موت امرىء شاعت فضائله كموت من لا له فضل وعرفان
والموت حـق ولكن ليس كـل فتى يبكى عليه إذا يعـروه فـقدان
فى كل يوم ترى أهل الفضائل فى نقصان عـدو للجهـال حجان

وكتب الأستاذ الجليل سامى خشبة فى نفس هذا العدد من الأهرام يقول : ، هل سنذكره الآن ، وقد رحل ـ كالرهبان ـ فقيراً فى عاصفة من النار ، أم سوف ننساه ثانية ، دون أن نستغنى عنه لحظة واحدة ، مثلما ننسى وعينا ، ونحن نعيش به ؟ !

وكتبت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى الأهرام ١٩٩٣/٤/٢٤ ، تحـت عنوان الدكتـور جمال حمدان ، تـقول : ، ولأن فقده كان مفاجئا وقاسيا ، أحسست فى لحظة بأنى فقدت من جديد صفا من الشوامخ ينتظم العـقاد ولـطـفى السيد و الخولى وعبد الوهاب عزام وطه حسين وأحمد أمين ومصطفى مشرفة وتوفيق الحكيم والزيات

والمازنى وأم كلثوم . هؤلاء الذين عصرنى فقدهم أحادا ، اجتمعت على كيانى بفقده ، جروحى فيهم ، وبكيت عليهم معه .. وبكيت عليه مثلهم أحر بكاء ، بكت نفسى على نفسى بقدر ما أنتمى إلى كل عزيز على مصر .. وبكيت عليك يا وطنى أن تفقد غواليك وأعلى القمم ... ،

أما الشاعر الكبير الأستاذ فؤاد جويدة ، فقد كتب يقول فى جريدة الأهرام ١٩٩٣/٤/٢٥ تحت عنوان ، جمال حمدان : عاشق مصر العظيم : ، ... جمال حمدان نموذج فريد من العطاء ... هذا الجهد المثابر العنيد الضارى الذى استطاع به جمال حمدان أن ينجز مثل هذا العمل الضخم الذى يحتاج لعشرات العقول .. وعشرات السنين .. ولكن جمال حمدان استطاع أن يقوم به بمفرده متحديا الواقع الكئيب والزمن الردىء الذى تصور الأقزام فيه أنهم يمكن أن يطاولوا قامة الرجل وشموخه ،، سوف نذكر فى الرجل زهد النفس .. وترفع الموقف .. والصبر على البلاء .. وسوف نذكر مع هذا كله عطاء عالم فذ كبير .. وسوف نسكب دموعا غزيرة على قبر جمال حمدان .. ولكن دموع الدنيا لن تغفر أبدا خطيئة اسمها الجحود ... ،

وكتب السفير العالم عبد الرءوف الريدى فى الأهرام ١٩٩٣/٤/٢٦ ،

تحت عنوان : جمال حمدان : الأنشودة التى لم تنته ، يقول : « إن جمال حمدان الذى كتب عن مصر وشخصيتها كما لم يكتب أحد من قبل ، وكانت حياته أنشودة عبقرية ، يمكن أن يكون موته أيضا مناسبة لكى يتواصل عزف هذه الأنشودة لتسمعها الأجيال المتعاقبة على أرض مصر التى أعطاها حياته عقلا وقلبا .. » .

وكتب الأستاذ نبيل عبد الفتاح فى أهرام ١٩٩٣/٤/٢٧ ، وتحت عنوان : وداعا جمال حمدان : عبقرية العشق وطقوس العشاق ، يقول : « ... انفتحت فى هـذه اللحـظة أسرار مصر المحـروسة بأمر ربى ، ولب لبابها العميق بين يدى جمال حمدان ، فلا يكاد المرء يعرف أيهما العاشق أو المعشوق فى وصال الأرواح والعقول والقلوب الساعية إلى الخلود .. لقد مثلت إسهامات جمال حمدان الفكرية والجغرافية أهم إنجازات مدرسية مصرية بازرة فى الجغرافيا .. إن سبعة آلاف سنة من الإنجاز الحضارى ، والمحن القومية ، والأزمات الممتدة ، والمواهب المهذبة كلها تعلن الحداد لرحيل واحد من أبرز علامات إبداع أبناء هذه الأمة وتاريخها المديد .. وها هو ثرى مصر يأتلف راضيا مرضيا مع

جسد وروح عاشقها العظيم جزاء من أبديتها ، وعلامة على تضررها العبقرى المبين » .

وكتب الاستاذ صلاح الدين حافظ فى أهرام ١٩٩٣/٤/٢٨ ، يقول: « ... وفى سبيل ذلك كله ، عانى جمال حمدان الوحدة والعزلة وبؤس الحياة وفقرها ، بينما الجميع من حوله منتفخ الأوداج بالغرور والصلف والثراء الكاذب والفكر المناور والثقافة الزائفة والسلوك المخادع المخاتل... ولم يكن غريبا إذن أن يشعر الرجل بالاضطهاد والمعاناة العامة والخاصة وصولا للاكتئاب العام ، فيموت فى برودة جامدة ، دون أن تهتز لرحيله مصر التى مجدّ عبقريتها الحقيقية ، بقدر ما كشف عورتها التى لطخها بها بعض أبنائها « من العلماء العملاء ، وزواحف الانتهازيين والمأجوريين » الذين أشاعوا الجهل والسطحية والتخلف ، فإذا بنا جميعا « أسـرى الإرهـاب والترويع الفكرى والجسدى ، فى عصر يتغير دون أن ندرك حقيقة ما يجرى ! فمتى نقرأ ونعى ونفهم حقيقة ما يجرى حقا ؟! » .

وفى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٩٣/٤/٢٩ ، كتب الأستاذ الدكتور محمد صابر عرب فى مقال له بعنوان : جمال حمدان : المأساة

والعبقرية ، يقول : « وإذا كانت الظروف المأساوية التى أحاطت بوفاة راحلنا العظيم قد ضاعفت من حزننا إلا أن ذلك لا يقلل من حجم الكارثة الإنسانية والحضارية التى ارتكبت فى حق هذا المتوحد المتشامخ جمال حمدان الذى اعتزل الحياة إلا أنه لم ينعزل عنها بل تفاعل معها وراح يرصد واقعنا الثقافى والحضارى بحس وطنى وبرؤية تنم عن خلفية ثقافية رفيعة المستوى » .

أما تلميذه الدكتور عبادة كحيلة ، فقد كتب فى جريد الأهرام الصادرة فى ١٩٩٣/٥/٣ ، وتحت عنوان : جمال حمدان ... وذكريات مع الإنسان .. والعالم .. وعلم الجغرافيا ، يقول : « ذكرتنى جلساتى مع هذا العبقرى بجلسات أخرى مع عبقرى آخر .. العقاد .. وكان يسيرا عليه أن يبحث عن نفسه خارج الجامعة ، بل خارج الوطن ، وسنحت الفرصة غير مرة ، بل صارت تلهث وراءه فى زمان صار الكثرة يلهثون وراء النفط ، لكنه كان نسيج وحده آثر أن ينصرف عن دنيانا هذه الرديئة إلى دنياه التى أحب ، ورغما عن موارد مادية محدودة ، ومتاعب صحية كان يعانى منها ، إلا أنه أدار ظهره لكل شيء .. كنت أعلم حقيقة المحنة التى مرّ بها ، وهى محنة صنعتها نفوس صغيرة

زاملته فى الجامعة ، ولكنه دائما يتحاشى الحديث عنها ... يبقى من حمدان نموذج رائع لعالم احترم نفسه و احترم علمه ، وجعل هذا العلم قيمة لا تعلوها قيمة ، لا يهمه بعدها أى شىء ولا يهمه كل شىء ... كان الهام العام يكمن وراء كتب حمدان ...

وكتب صديقى وزميلى العزيز الدكتور عبد العزيز الشربينى ـ وهو أيضا صديق وزميل جمال فى المدرسة التوفيقية ، كتب يقول فى جريدة الأهرام فى ١٩٩٣/٥/٥ ، وتحت عنوان : جمال حمدان فى صباه : «... ورغم تفوقنا نحن الأربعة (رفعت المحجوب ـ صبحى عبد الحكيم ـ عبد العزيز الشربينى ـ جمال حمدان) فى الدراسة ، واتجاهنا إلى كليات مختلفة للدراسة بجامعة القاهرة ، فقد اتضحت منذ تلك اللحظة البعيدة الزمن مؤشرات تبرز بوضوح وجلاء عبقرية جمال حمدان ، مع أنها كانت لا تزال فى مهدها ، ومن أبرز هذه المؤشرات تفوقه الملحوظ فى رسم الخرائط الجغرافية والتفنن فى إظهار التباين فى التضاريس ، والمعالم الطبيعية ، وأضف إلى ذلك تجويده للخط العربى ، وإخراجه فى ثوب جميل للنظر ، وهذا كله مع أسلوب رائع عذب فى كتابة ينساب كأنغام الموسيقى الحالمة ...» .

وكتب الأستاذ الفاضل أحمد صدقى الدجانى تحت عنوان : جمال حمدان ورؤاه المستقبلية ، وذلك فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٩٣/٥/٩ ، فقال : « تتميز كتب جمال حمدان بمزايا كثيرة تجعلها تحتل مكانا خاصا فى مكتبتنا العربية ، وتنضم إلى ذخائر تراثنا العربى. ومن أبرز هذه المزايا و فى مقدمتها ما تضمنته هذه الكتب من رؤى صاحبها المستقبلية . فجمال حمدان فى هذا القرن من تاريخ أمتنا عبر القرون ، هو واحد من نفر معدودين على صعيد عالمنا يذكروننا بنظر « زرقاء اليمامة » الثاقب الذى أشار إليه المقرى صاحب « نفح الطيب » ... ثم قال بعد أن عدد هذه الرؤى : « ان الحاجة ماسة لتعريف عامة قومنا وكثير من خاصتهم برؤى جمال حمدان المستقبلية لأنها تبعث على التأمل وتحث على التفكر وتشحذ الهمم ... وكم تشتد الحاجة إلى تعريف أهل الحل والعقد ممن لم يطلعوا عليها بها ، لأنها ترسى العمل السياسى على أساس متين من النظر الاستراتيجى ، سواء اتفقت معها أم اختلفت ... » .

ومن مدينة تبوك حيث يعمل الدكتور ابراهيم عبد الفتاح يونس ، كتب فى مقال له نُشر فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٩٣/٥/١٠

يقول تحت عنوان : جمال حمدان .. العاشق الغريب : « شخصية تعلمت وعلمت .. تركت بصماتها واضحة على واقعنا الثقافى بصورة تبهر العقول .. وتصنع مثلا أعلى من الصعب أن يتكرر .. ! درست على يديه فى كلية الآداب ... واقتربت منه وتحاورنا كثيرا ... وفى صمت وسكون يموت جمال حمدان وهو ملء البصر والسمع لكنه غريب منعزل لا يكلم أحدا .. ولا يلتقى بأحد ، ولا يسمع لأحد إلا القلم .. والكتاب .. والعود .. وأمامه معشوقته مصر .. يتغزل فيها ويكشف أسرارها ويقدم لنا مالم نعرف عنها ... وداعا أيها العاشق الغريب .. وجزاك الله خيرا على ما قدمت لمصر ولأبناء مصر .. ولن تنساك الثقافة المصرية العربية .. كلما قرأنا لك واقتدينا بك .

وكتب زميلى العزيز الدكتور طلعت أحمد إبراهيم فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٩٣/٥/١٣ ، وتحت عنوان : لتخليد ذكرى العالم العبقرى : جمال حمدان ، يقول : فى خريف عام ١٩٥٣ كان لقاء د . جمال حمدان بطلبته لأول مرة ، ونتذكر أنه كان يدخل قاعة المحاضرات رشيقا أنيقا ، يضم إلى صدره الكتب والمراجع ، تعلو وجهه ابتسامة مشرقة ، نظراته محلقة فاحصة ... وتعددت محاضراته طوال

أعوام الدراسة ... وانبهر الجميع بشخصيته المتميزة ، وبعلمه الغزير ، وبروح الأستاذ الجامعي الحقة ..." .

وفى خطابه الأخير إلى جمال حمدان ، كتب الدكتور محسن عبد الخالق فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٩٣/٥/١٧ ، يقول : " ... مصر الوطن يعزوها رعدة كلما تصورت ما صنعته نارها بك .. لقد مات كل شيء .. ومات فيها شيء ؟ مصر هى الباكية فقط ودموع الأشخاص تجف ، لكن دموع الأوطان أبدا لا تكف ! مصر تفتقدك بشدة ، فقد خصتك بما فى خبيئة صدرها ، وما تسرّه أرضها ! فقد اعتادت أن تفك كل القيود أمام عبقريتك عندما تدلهم بها الأحوال ، وينتابها لحظات من اليأس والقنوط ! ... وبعد ، ما الذى أصابك يا وطنى ؟ ! رموزك تهوى ، وكنوزك تفنى ، نزيف مستمر ، ونحن نلملم جراحك يا وطنى ! " .

وتحدث الأستاذ كامل زهيرى ، وكانت تربطه بجمال أواصر الصداقة والود والتقدير المتبادل ، فى عموده (من ثقب الباب) المنشور فى جريدة الجمهورية الصادرة فى ١٩٩٣/٥/١٧ ، عن إعادة طبع

شخصية مصر فى سلسلة كتاب الهلال وكيف كان هو الكتاب « النواة » لملحمة شخصية مصر التى صدرت تباعا فى أربعة أجزاء قاربت ٣٥٠٠ صفحة . كما تحدث فى الندوة التى عقدت فى دار الأوبرا عن مصر فى عيون جمال حمدان ، واسترجع ذكرى لقائه به واكتشافه له فى عام ١٩٦٤ وقال : لم أكن أيامها قد اكتشفت أن جمال حمدان من العائلات البصرية أو تلك السلالة النادرة التى تخلصت مـن أمـية العين والتى تعشق الرسم والفنون التشكيلية . فقد كانت قدرة حمدان الفذة هى أنه يستطيع نقل المجردات إلى محسوسات بصرية . ثم قال : وحمدان لم يصنف ولكنه بنى وجدد وطرح منهجا عربيا لدراسة الجغرافيا . أما الدكتور على بركات فقد كتب فى أهرام الجمعة الصادر فى ١٩٩٣/٥/٢١ ، تحت عنوان « شخصية مصر عند جمال حمدان » ، دراسة عن الجزء الثانى من شخصية مصر . الذى جدد فيه جمال حمدان ، ومن خلال قراءة متأنية لتاريخ مصر عبر العصور ، وعلى ضوء حقائق المكان (الموقع والموضع) الضوابط الرئيسية التى حكمت حركة التاريخ المصرى ، محاولا الوصول إلى القوانين العامة فى حـركة التاريخ هـذه فيـما يصل إلى الحتمية الجغرافية ، مستعرضا

لأكثر الإشكاليات تعقيدا فى تاريخ مصر ، ومن بينها إشكاليتان رئيسيتان :

الأولى : علاقة الاستبداد ـ تاريخيا ـ بنظام الحكم فى مصر ، وانعكاسات ذلك على الشخصية الوطنية المصرية .

والأخرى : علاقة العامل الخارجى بحركة التاريخ المصرى .

وركز الأستاذ سامح كريّم فى عموده الثقافى بعدد الجمعة من جريدة الأهرام وعلى أربع حلقات ابتداء من ١٩٩٣/٥/٢١ ، على اهتماماته بعبقرية المكان وعلى استعداده الفطرى وميله الشخصى للجغرافيا الذى جعله يقول ذات يوم بأنه مخلوق جغرافى ، أو أنه خلق هكذا جغرافيا رغم أنفه . وأن هذا كان ترجمة حقيقية لميوله الفنية . ثم تكلم عن دراسته للقاهرة التى جاءت كمقدمة لكاتب ديزموند شتيوات الذى ترجمه الكاتب الراحل يحيى حقى . ثم تحدث عن شخصية مصر وعبقرية المكان ، فقال : ولو أن الدكتور حمدان لم يترك غير هذا الكتاب لاكتفى به عملا صالحا يشرفه ، و لاعتبرته مصر سجلا حافلا يروى عظمتها . وخلص من ذلك إلى أن عزلته كانت منتجة .

وكتب الأستاذ الدكتور إبراهيم العيسوى فى جريدة الأهرام الصادرة

فى ١٩٩٣/٥/٢٣ تحت عنوان دروس من سيرة صاحب شخصية مصر ، يقول : هل كان من المحتم أن يموت جمال حمدان تلك الميتة المأساوية حتى نفيق ونلتفت إلى ما فى بلادنا من درر منزوية . إن فى حياة وممات جمال حمدان عبرا كثيرة ودروسا شتى يمكن الاستفادة منها فى إنها فى مصر وبناء مستقبل أكثر إشراقا لها . وقال : إن أهم هذه العبر والدروس هى : ١ـ درس الانتماء ، ٢ـ درس القدوة ، ٣ـ درس الإبداع ، ٤ـ درس المؤسسات .

وكتب الأستاذ محمد العزبى صادقا تحت عنوان كيف تصبح وزيرا فى جريدة الجمهورية الصادرة ١٩٩٣/٥/٢٥ : وبمناسبة « جمال حمدان » ما أكثر الذين كتبوا عنه بعد موته ، وكلهم قالوا بأنه كان صديقا ، وكان يفتح لطرقاتهم المعينة بابه ، وكان يخصهم بأفكاره ، وتلك على أية حال ظاهرة عالمية ، فهناك متخصصون فى كتابة المذكرات والذكريات والاستشهاد بأقوال الذين فارقوا الحياة وأضاف : أين كان كل هؤلاء والعالم الجليل يعانى من ظلم المجتمع وفساده حتى عندما زالت الظروف التى كانت تمنع الخوض فى أسباب غضب « جمال حمدان » ، خوفا من الحكام ، ... وإنما تركناه وحده يدافع عن

كرامتنا بطريقته الخاصة ، رحمه الله ...

وكتب دكتور شعبان عبد العزيز عفيفى فى بريد الأهرام بتاريخ ١٩٩٣/٦/١٦ : ما أكثر المقالات والأبحاث والدرسات التى كتبت عن المرحوم الدكتور جمال حمدان ، والتى أشادت جميعها بغزارة علمه وبالقيمة الأكاديمية والفكرية الممتازة لكتبه ومؤلفاته ، كما أبرزت تواضعه واعتزاله الحياة الاجتماعية وابتعاده عن الناس لكى يتفرغ للبحث والدراسة . وإنى أتساءل ... لماذا لم يهتم كاتب واحد ـ أثناء حياة الدكتور جمال حمدان ـ بمعرفة السبب أو الأسباب التى دعته إلى الاستقالة من الجامعة وإلى اعتزال المجتمع والبعد عن دنيا الناس ؟ ... أذكر أننى عندما كنت طالبا بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة فى منتصف وأواخر الخمسينات ، كنت « أزوغ » من بعض محاضرات القسم لكى أحضر محاضرات الدكتور حمدان بقسم الجغرافيا ، وكان بعد لا يزال شابا عائدا حديثا بالدكتوراه من بريطانيا ، وكنت أجد فى محاضراته ـ رغم أنها ليست تخصصى ـ متعة كبيرة وفائدة عظيمة لأنه كان بعلمه الغزير وثقافته يحلق بنا فى آفاق المعرفه الواسعة ثم يهبط بنا فى مطار الجغرافيا ...

رحمه الله رحمة واسعة ... وعوضنا عنه خيرا ...

فمصر فعلا ، ولاّدة ، ...

وكتب الأستاذ مأمون غريب فى مجلة آخر ساعة الصادرة فى ١٩٩٣/٤/٢١ تحت عنوان : عاشق شخصية مصر : رحل وحيدا ، يقول : ... أذكر أن علامات الاستفهام الحائرة والمحيّرة تلك قد ارتسمت فى ذهنى كلما قرأت كتابا أو بحثا أو مقالا له ... ومن خلال ما قرأته عنه وله ... أنه كان يستيقظ فى الفجر ، ويبدأ فى الكتابة حتى الساعة الحادية عشرة ثم يعاود الكتابة مرة أخرى من الساعة الثالثة حتى السابعة . وكان يرى أن القراءة سهلة ويسيرة ، والتفكير أسهل من القراءة ، ولكن المشكلة الحقيقية هى الكتابة .. فقد كان يرى فيها معاناة شديدة . وكان يتحدث عن حبه للجغرافيا بقوله : هذه مهنتى وهوايتى التقى فيها استعدادى الطبيعى مع ميلى الشخصى ، وأنا أعتقد أن تركيبة عقليتى جغرافية بحتة ، فأنا مخلوق جغرافى .. أو حيوان جغرافى .. فقد خلقت جغرافيا رغم أنفى .. وأنا أعتقد أن استعدادى الطبيعى للجغرافيا هو الترجمة العلمية لاستعداداتى وميولى الفنية ، فأنا أقترب بالجغرافيا من الفن .. وأنا تستهوينى الطبيعة وجمالها ... رحم الله

العالم الكبير الذى ملأ الدنيا حياة ، وترك من خلفه ما هو جدير بالخلود! .

وتحدث الكاتب الكبير الأستاذ عبد العال الحمامصى فى مجلة أكتوبر الصادرة فى ١٩٩٣/٤/٢٥ ، وتحت عنوان : جمال حمدان : ناسك الفكر .. رافض الصخب !! ، يقول : « إن هذا المفكر يقف فى تاريخنا شاهدا حيًا على أصالة العبقرية المصرية التى أعطت جماع وجودها وذوب عمرها للعلم الخالص المجرد من المطامع .. لقد تنسك هذا الرجل الفذ فى صومعته .. معتزلا الصخب .. رافضا التقاتل حول منصب أو التكالب حول وجاهة .. مترفعا على الدنايا و الأغراض .. والأعراض ... إن تاريخنا المعاصر لم يعرف راهبا فكريا مثل الدكتور جمال حمدان الذى تأبى على صراع التفاهات والمناصب وأضواء الوجاهة وهالات الشهرة ليتفرغ لعلمه وكتبه التى تقف من علامات الثقافة المصرية المتفوقة والمتوهجة فى النصف الأخير من هذا القرن .. بدون أن يسعى إلى موقع يعادل قامته .. وحتى الجوائز التى نالها مصريا وعربيا جاءته صاغرة تطرق بابه .. وتشرف به أكثر مما تشرف بها .. لأن أوسمته كانت عبقرية كتبه وحدها !! » .

وأصدرت مجلة القاهرة المصرية عددا به ملف خاص عن « جمال حمدان في الثقافة المصرية » لنخبة من كبار الأساتذة ، منهم الدكتورة لطيفة الزيات التي قالت : « كان عبقريا ... بمعنى قدرة الإنسان على أن يمـنح نفـسه كلية وبلا تحفظات للعمل الذي يجيده ويبدعه ... وألا يعاني من رغبات الدنيا سوى الرغبة في استكمال هذا العمل على الوجه الأكمل والأمثل ... » وفي نفس الملف كتب الدكتور شكري عياد يقول : « كنا نعمل معا في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، كان هو في قسم الجغرافيا وكنت في قسم اللغة العربية ... وكان كلانا يعرف الآخر بالاسم .. وكان أول ما استرعى نظري في شخصيته شدة الانضباط في هندامه وكلامه ... » أما الدكتور حسن حنفي فقد كتب في نفس الملف يقول : « ... أعطتني شخصية مصر الأساس الجغرافي للتاريخ والسياسة والاجتماع ، وحولتني من مثالية السماء إلى واقعية الأرض .. من الثقافة إلى التاريخ ، ومن العقائد إلى الجغرافيا ... » وقال الدكتور بهيج إسماعيل : عاش جمال حمدان كل سنوات عمره ... كأنها يوم واحد طويل ... ولكنه كان يحيا داخل عقله العبقري في اليوم الواحد كل سنوات التاريخ ... وهكذا لم يعد جمال حمدان يحس في الليل ببرودة

المكان أو أن الجدران من حوله صفراء رطبة .. بل لم يحس حين أمسكت به النيران أن جسده كان ذا قيمة كبيرة داخل الرحلة الطويلة المقدسة » .

ونظم مركز البحوث والدرسات بجامعة القاهرة ندوة علمية تحت عنوان : « جمال حمدان : التفاعل بين عبقرية الإنسان والمكان » قال الدكتور أحمد الغندور فى افتتاحها :

إن هذه الندوة هى كلمة عرفان للعالم الراحل الذى شكل رحيله خسارة علمية ، فقد كان قلما أصيلا ومنتميا ، وأضاف الدكتور على الدين هلال مدير المركز أن الندوة ليست مناسبة للتأبين لأن المفكر لا يموت وقال محمود أمين العالم إن القيمة الكبيرة التى يمثلها جمال حمدان تتمثل فى أنه كان صاحب مشروع حضارى شامل يعتبر امتدادا لمشروع عصر النهضة وهو يلتقى مع المفكر العربى ابن خلدون من زاوية تقديم الرؤية الشاملة ، فقد قدم حمدان فى شخصية مصر رؤية عمرانية استراتيجية شاملة تبدا من الواقع الجغرافى الطبيعى لتمس كل القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكان حمدان حريصا

على تحديد المنهج وابراز طابع الجغرافيا كعلم هدفه الوصول من دقائق التفاصيل الى القوانين الحاكمة باعتبار أن النظرة الشاملة هى المدخل المنهجى لاكتشاف الحقيقة وجمع بين النظرة التحليلية الحقيقة وجمع بين النظرة التحليلية التليسكوبية والنظرة الشاملة الميكروسكوبية وكانت رؤيته تتجسد فى أن الجغرافيا هى التاريخ الثابت والتاريخ هو الجغرافيا المتحركة وقال الدكتور صبحى عبد الحكيم : إن حمدان استطاع لن يطل من نافذة الجغرافيا على فروع كثيرة من المعرفة وخاطب جمهورا عريضا لم يقتصر على أهل الاختصاص وكان هناك إجماع بين الحضور ممن عايشوا جمال حمدان على أنه كان معتزا بنفسه لأبعد حد وكان فى غاية الحساسية وقال الدكتور أحمد على اسماعيل رئيس قسم الجغرافيا : إن اعتزال حمدان لم يكن عزلة لأنه ظل ينفعل بما يجرى حوله ، وكان اعتزاله اقتحاما وليس انسحابا حيث اتسعت دائرة جمهوره لتشمل عامة المثقفين وبلغ انتاجه ٢٢ كتابا و٢٦ مقالا .

وقالوا عنه ...

- رحيل جمال حمدان خسارة كبرى لمصر على جميع المستويات الجغرافية والتاريخية والثقافية . ورغم معرفتى المتواضعة به إلا أننى أحترمه كعقلية قلما يجود بها الزمان .

رحمه الله وعوض مصر عنه خيرا .

(دكتور شوقى ضيف)

- كان جمال حمدان مثالا للعالم الأديب المؤرخ المدقق الذى كرس حياته لكتابة أروع الكتب التى تمجد مصر ، وخاصة فى مؤلفه الفريد « شخصية مصر »

(الأستاذ نجيب المستكاوى)

- إن وفاة جمال حمدان خسارة فادحة للبحث العلمى الجاد ولأنه

كان نموذجا فريدا للتجرد العلمي وكان راهب فكر .

(الأستاذ عبد الوهاب مطاوع)

- كان رفضه للمجتمع رفضا إيجابيا بمعنى أنه مستمر فى العطاء والكتابة ، ولم ينهزم حتى آخر لحظة فى حياته . قدرته على الاستمرار كانت جزءا من شخصية مصر نفسها وأخيرا لم أتصور أبدا أن يموت بهذه الطريقة المأساوية .

(الأستاذ يوسف القعيد)

- سقط هرم من أهرامات مصر ورحل عنا فارس من فرساننا إنه العالم الزاهد الأستاذ الدكتور جمال حمدان ، رحل عنا فى صمت تاركا أبلغ الأثر فى نفوسنا . وكان رحمه الله يضرب المثل الفريد بالفعل والواقع العملى لجيل الشباب ويوصل إليهم رسالة الاهتمام بالبحث العلمى والجدّية فى طلب المعرفة .

(دكتور يسرى عبد المحسن)

- وهكذا رحل جمال حمدان تاركا تراثا مجيدا فى شخصية مصر ونموذجا فريدا فى الوفاء والحب لأرض مصر .

(دكتور ميلا بديع عبد الملك)

- كان واسع الصدر للمناقشة والأسئلة كما كان طاهر القلب نقى

اللسان . حزنت والله على فقده حزنا عميقا لأنى كنت أراسله بعد التخرج .

(عبد المحسن مرزوق ـ من تلاميذه)

ـ هكذا كان الدكتور العظيم جمال حمدان .. اختار أن يكون فقيرا مصريا فى حياته ، كما عاش غاندى الفقير الهندى .. هو من عائلة كبيرة ، وله أموال كثيرة ومركز علمى جامعى .. ترك كل هذا من أجل أن يكتب للأجيال شخصية مصر ..

(سمير صبحى)

ـ لقد رفض الدكتور جمال حمدان المناصب والجوائز والجاه والمال ، ورفض الزوج والولد كى يتفرغ للعلم ... فسلام عليه فى الخالدين .

(لواء أحمد العرنوسى)

تشهد مصـــر ٣٠ مولودا كل ثانية ، وأكثر من نصفهم تقريبا يذهب للقاء ربه ، ولكن رحلة الموت والحياة تستمر فى إيقاعها العادى دون أن يشعر بها إلا عدد قليل من الناس ، أما العباقرة فهم الذين يستطيعون تثبيت التاريخ ، ويوم وفاة جمال حمدان لن يكون مجرد يوم

عادى . إنه علامة فى التاريخ الفكرى والعلمى لمصر ، ولا يستطيع أحد أن يزعم إذا كانت شجرة جمال حمدان العـلمية سـوف تثمر فى القريب العاجل أم أننا ننتظر جيلا أكثر حكمة وأكثر احتراما للعلم ، لقد عرفت هذا المؤرخ العبقرى عن قرب ونشرت له أولى كتاباته فى مجلات الهلال ، ومنذ قرأت مقاله الأول أدركت أنه ليس أستاذا جامعيا أو مثقفا عاديا ولكنه موسوعة عبقرية شاملة .

(كامل زهيرى)

ـ جمال حمدان شخصية مصرية عالمية بكل المعانى ليس مجرد للجغرافيا وإنما كان مفكرا فذا فى تاريخ مصر الحديث ، فهو وحده الذى استطاع أن يقيم لنفسه ميزانا ليس لأحد غيره هذا الميزان . إن العلم وحده الذى يستطيع أن ينقذ الأمم ويرقى بها فى مدارج النهضة ، وسوف تظـل موسوعته ، شخصية مصر ، شاهدا لا يبارى فى أن مصر التى أنجبته تستطيع برغم الحزن العميق أن تنجب فى تلاميذه شموعا جديدة للنهضة المواتجاة . حزنى الشخصى بلا حدود لأنى أعلم أن د/ حمدان كان منكبا فى هذه الفترة بالذات على كتاب ، جغرافية الإسلام ، وهو كتاب بالغ الأهمية وهو موسوعة جديدة تضاف إلى

أعماله .

(الدكتور غالى شكرى)

ـ اكتشافاته العلمية ليست محل خلاف مع أحد ولكن ما يلفت الأنظار حوله أن هذا العالم الذى أرسى شخصية مصر وعبقرية مكانتها يعيش وحيدا منعزلا ويموت وحيدا محترقا . لماذا نجد هذا الإنجاز العلمى الضخم بيننا بينما يكون صاحبه خارج الحياة العامة ربما لأن قدر العالم أن يقف موقف المعارض للسائد ضد الحياة العامة والتى تضيق عليه الخناق . ومأساة الدكتور جمال حمدان تدعونا للنظر لتأمل الحياة العلمية والاهتمام بالعلماء وإنجازتهم العلمية فيجب أن يفكر الجميع فى إتاحة المناخ للفكر الحر المبدع وإزالة كل العقبات التى تتعرض لها العقليات الفذة وعدم التمسك بشكليات تحاول ، ولا تقف موقفا سلبيا من الاستهلاك الفكرى ولابد من الحفاظ على الخصائص الحية للهوية فى وطننا العربى .

(إبراهيم فتحي)

ـ سيـبقى جمال حمدان نموذجا للأكاديمى الجاد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . فقد أثبت أن الابتعاد عن المشاكل ليس هروبا بقدر ما هو سمو وأن عزلة المجتمع قد تكون أحيانا أقوى من الاندماج

فيه . لقد عرفته من خلال كتاباته الجادة التى تثبت أنه عاشق كبير لمصر وللمعرفة والحضارة فى نفس الوقت .. رحمه الله .

(عاطف العراقي)

ـ إذا كان جمال حمدان فى نظر الجميع عبقرية علمية فإنه بالإضافة إلى ذلك من وجهة نظرى نموذج للعبقرية الإنسانية والنفسية . وأنا كطبيب نفسانى أرى فى ما فعله جمال حمدان من حيث قدرته على الاعتزال والتفرغ التام للبحث العلمى والابتعاد عن كل مغريات الحياة أرى فى ذلك نوعا من الإعجاز النفسى وقوة الشخصية والإرادة وتحدى الاكتئاب . وأتصور أن أى إنسان فى موقعه لم يكن أمامه إلا العودة المرضية إلى المجتمع أو الانتحار ولكن عبقرية جمال حمدان وإرادته معا قد حفظته وحفظت صحته النفسية وهذا ما يستحق التأمل والدراسة .

(الدكتور يحيى الرخاوى)

ـ الزمن الذى نعيشه يثبت لنا كل يوم أن الإحباط هو سيد الموقف والذين يعيشون فى هذا الزمن ليس أمامهم إلا الصبر واحتمال الفجيعة تلو الفجيعة ، والصفعة تلو الصفعة فالشللية والانتهازية والوصولية فى

كل مكان حتى داخل أسوار الجامعة ، وسيبقى نموذج جمال حمدان ليفضح الأقزام وقصار القامة الذين حاولوا الصعود على حساب مستقبله الجامعى ولكنه سيعيش حتى بعد رحيله ، فالعباقرة لا يموتون .

(د. أحمد عبد الرحيم مصطفى)

المـــــلاحق

الملحق الأول

قائمة بمؤلفاته العربية التى نشرت باللغة العربية

- دراسات فى العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- أنماط من البيئات ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- دراسة فى جغرافيا المدن ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- المدينة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .
- بترول العرب ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- اليهود انثروبولوجيا ، كتاب الهلال ، ١٩٦٧ .
- شخصية مصر ، كتاب الهلال ، ١٩٦٧ .
- استراتيجية الاستعمار والتحرير ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- مقدمة كتاب ، القاهرة ، لديزموند ستيوارت ، ترجمة يحيى حقى ، ١٩٦٩ .
- العالم الإسلامى المعاصر ، القاهرة ١٩٧١ .

- بين أوروبا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- الجمهورية العربية الليبية ، دراسة فى الجغرافيا السياسية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- قناة السويس ، القاهرة ١٩٧٥ .
- أفريقيا الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- موسوعة ، شخصية مصر ـ دراسة فى عبقرية المكان ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٧٥ ـ ١٩٨٤ .

الملحق الثانى

قائمة بمؤلفاته وبحوثه
المنشورة باللغة الانجليزية

-Population of the Nile Mid - Delta, past and present, Reading University, June 1953, 2 vol ..

- Khartum : study of a city, Geog . Review, 1956 .

- Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, 1960 .

- Evolution of irrigation agriculture in Egypt, in :
A history of land use in arid regions, ed. L. Dubley Stamp, Unesco, Paris, 1961 .

- Egypt, the land and the people, in : Guide book to geology,1962 .

- Pattern of medival urbanisn in arab world, Geog . Review, April 1962 .

- Political map of the new Africa, Geog . Review, oct . 1963.

- The four dimensions of the Egypt, (underprint) .

الملحق الثالث

المقالات المنشورة باللغة العربية

فى المجلات والجرائد

فى مجلة (الهلال)

١ ـ فلسطين والوحدة ـ سنة ١٩٦٤ (١٠ صفحات)

٢ ـ نحـو حـل علمـى لمـشكلـة قبرص ـ اكـتوبـر سـنـة ١٩٦٤ (١٠ صفحات)

٣ ـ ماذا تعد إسرئيل عسكريا ـ نوفمبر سنة ١٩٦٤ (٨ صفحات)

٤ ـ أصول تاريخية وجغرافية فى مصر ـ البيروقراطية والجغرافيا ـ فبراير سنة ١٩٦٥ ـ (١٢ صفحة)

٥ ـ هل تمـلك إسرئيل سلاحا ذريا ـ مايو سنة ١٩٦٥ (١٢ صفحة)

٦ ـ إسرئيل الصهيونية وأرض فلسطين ـ عدد فلسطين (٥) السنة ٧٦ مايو سنة ١٩٦٨ (٢٠ صفحة)

٧ ـ مقتـطفات من مقـالة (هـل تـملك إسرئيل أسلحـة ذريـة) ـ عـدد الـهلال الماسـى (٧٥) . مـع صـورة للدكتـور / جـمال حـمدان (صفحة واحدة)

في مجلة (الكاتب) :

١ ـ الوحدة العربية بين مقوماتها ومعوقاتها ـ العدد (٥٩) فبراير سنة ١٩٦٦ (١٥ صفحة)

٢ ـ معركة العودة والاستراتيجية النووية ـ العدد (٦٠) مارس سنة ١٩٦٦ (١٨ صفحة)

٣ ـ نافذة على البحر الأحمر ـ القصير لابرنيس ـ العدد (٦٢) مايو سنة ١٩٦٦ (١٠ صفحات)

٤ ـ قضيـة فلسطين والموقـف العربى العدد (٦٥) أغسطس سنة ١٩٦٦ (١٩ صفحة)

٥ ـ قضية فلسطين ومحور الاستعمار والصهيونية العدد (٦٧) اكتوبر سنة ١٩٦٦ (١٧ صفحة)

٦ ـ قضيـة فلسطين والعدو الإسرائيلى ـ العـدد (٦٨) نوفمـبر ١٩٦٦ (٢٥ صفحـة)

٧ ـ الأردن دولة ـ دراسة فى الجغرافيا السياسية (١) العدد (٧٠) يناير سنة ١٩٦٧ (٢٠ صفحة)

٨ ـ الأردن دولة ـ دراسة فى الجغرافيا السياسية (٢) العدد (٧١) فبراير سنة ١٩٦٧ (١٥ صفحة)

٩ ـ نظـرة علي الموقـف قبـل المعـركة ـ العـدد (٧٥) يونيو سنة ١٩٦٧ (١٧ صفحة)

١٠ ـ أهـداف ثابـتة ووسـائل متغيرة ـ العدد (٧٧) أغسطس سنة ١٩٦٧ (٢١ صفحة)

١١ ـ حول الدعوة إلى نظرة جديدة إلى القضية الفلسطينية العدد (٨٥) ابريل سنة ١٩٦٨ (١٧ صفحة)

١٢ ـ فلسطينيات ـ بين معركة الدعاية ومعركة الميدان ـ العدد (٨٧) يونيو سنة ١٩٦٨ (٢٤ صفحة)

فى مجلة (مرآة العلوم الاجتماعية :)

١ ـ مـورفولـوجـيـة الشـام العـدد الثـانى ، مـارس سنـة ١٩٦٤ (٢٦ صفحة)

٢ ـ نحو مدرسة عربية فى الجغرافيا ـ العدد الاول ، ديسمبر سنة ١٩٦٤ (٢٨ صفحة)

٣ ـ الزراعة فى سـوريا ، الـعدد الأول ، ديســـمبر سنة ١٩٦٥ (٢٠ صفحة)

٤ ـ ديموغرافية العواصم الافريقية ، العدد الأول ، ديسمبر سنة ١٩٦٢ (١٢ صفحة)

٥ ـ افريقيا ـ من جغرافية الاستعمار الى التحرير العدد الثانى مارس سنة ١٩٥٨ (١٣ صفحة)

٦ ـ هـذه الجـغـرافـية ، العــدد الأول ديســمــبـر ســنـة ١٩٥٧ (١٠ صفحات)

٧ ـ الموقـع الاستراتيجيـة للعـالم العربى ـ العدد الثانى يونيو سنة ١٩٥٨ (١٣ صفحة)

٨ ـ التخطيط الاقليمى بين موارد المياه والسكان فى مصر ـ العددان الرابع والخامس ـ مايو سنة ١٩٥٩ (١٤ صفحة)

٩ ـ تخطيطنا الإدارى فى ضوء نظام الحكم المحلى ـ العدد الثالث ، يونيو سنة ١٩٦١ (١٧ صفحة)

١٠ ـ أسمـاء الأماكن فى العالم العربى ـ العدد الثانى ، مارس سنة ١٩٦٣ (١٤ صفحة)

١١ ـ الصـنـاعـة السـورية ـ العـدد الثـانـى ، مـارس سنة ١٩٦٦ (١٦ صفحة)

فى مجلة (الفكر المعاصر) :

١ ـ هيكل المجتـمع الإسرائيلى ـ العدد (٦) أغسـطس ، سنـة ١٩٦٥ (١٠ صفحات)

٢ ـ حـول وحـدة الرافدين والنيل ـ دراسة علمية لقوة العراق الاستراتيجية ، العدد (١٢) ، فبراير سنة ١٩٦٦ (١٢ صفحة)

٣ ـ خـريطـة القومية الافـريقية : تحليل علمى منهجى لوضع الانـسان الافريقـى المعـاصـــر ـ العـدد (١٤) ، ابريل سنة ١٩٦٦ (١١ صفحة)

٤ ـ من جغرافية الإسلام : دراسة رائدة عن توزيع المسلمين فى العالم ـ العدد (٢٠) ، اكتوبر سنة ١٩٦٦ (١٨ صفحة)

٥ ـ ليـس اليـهـود مـن بـنى اسرئيل : دراسـة علـمية لاسطورة الاصل اليهودى ـ مهداة الى سارتر ـ العدد (٢٤) ، فبـراير سنة ١٩٦٧ (١٢ صفحة)

٦ ـ المعركة لم تنته من بنى .. بل بدأت ـ العدد (٣٠) ، أغسطس سنة ١٩٦٧ (١٥ صفحة)

٧ ـ نـحـــن والـدولـة العـصـــرية ـ الـعـــدد (٤١) ، يوليو سنة ١٩٦٨ (١٧ صفحة)

في مجلة (كلية الآداب) :

١ - فـي الـعلاقة بين السكان والتضاريس - دراسة في جغـرافية السكان - المجلد (١٩) الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٥٧ (٢٠ صفحة)

٢ - العلمية الجديدة - نحو نظرية معرفة متطورة ، وعلم منهج جغرافي ، عدد (٥٢) ١٩٩١ .

في مجلة (نهضة افريقيا) :

١ - الخريطة السياسية الافريقية ‹ (١) ، (٢) مقالتان - العددان (٦٩) ، (٧٠) أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٦٣ (٨ صفحات)

٢ - الخريطة السياسية لافريقيا الجديدة - العدد (٧٠) سبتمبر ١٩٦٣ (٩ صفحات)

٣ - العواصم الافريقية (١) ، (٢) ، (٣) ثلاث مقالات - الاعداد (٧٣) ، (٧٤) ، (٧٥) ديسمبر سنة ١٩٦٣ يناير وفبراير سنة ١٩٦٤ (٦ ، ٥ ، ٧ صفحات)

في مجلة (المجلة) :

١ - الإسلام في افريقيا ، دراسة سياسية - العدد (٨٢) نوفمبر ١٩٦٣ (٧ صفحات)

٢ ـ جغرافية الثورة ـ العدد (٨٨) ابريل ١٩٦٤ (٢٠ صفحة)

٣ ـ جوانب سياسية فى بترول العرب ـ العدد (٩١) يوليو ١٩٦٤ (١٤ صفحة)

٤ ـ شخصية مصر ـ مركزية رغم الامتداد ـ العدد (٩٥) نوفمبر ١٩٦٤ (٩ صفحات)

٥ ـ شخصية مصر ـ بين مياه النيل وطريق السويس ـ العدد (٩٦) ديسمبر ١٩٦٤ (١٠ صفحات)

٦ ـ شخصية مصر ـ تعدد الجوانب ـ العدد (٩٧) يناير ١٩٦٥ .

٧ ـ من جغرافية الاستعمار الى عدم الانحياز (١) ـ العدد (١٠٥) سبتمبر ١٩٦٥ (٢٠ صفحة)

٨ ـ من جغرافية الاستعمار الى عدم الانحياز (٢) ـ العدد (١٠٦) اكتوبر ١٩٦٥ (٢٠ صفحة)

٩ ـ من جغرافية الاستعمار الى عدم الانحياز (٣) ـ العدد (١٠٧) نوفمبر ١٩٦٥ (٢٥ صفحة)

١٠ ـ من جغرافية الاستعمار الى عدم الانحياز (٤) ـ العدد (١٠٨) ديسمبر ١٩٦٥ (٢٢ صفحة)

١١ ـ من جغرافية الاستعمار الى عدم الانحياز (٥) ـ العدد (١٠٩) يناير ١٩٦٦ (١٢ صفحة)

١٢ ـ من جغرافية الاستعمار الى عدم الانحياز (٦) ـ العدد (١) ١٩٦٦

١٣ ـ من جغرافية الاستعمار الى عدم الانحياز (٧) ـ العدد (١١٢) ابريل ١٩٦٦ (١٦ صفحة)

١٤ ـ بين اوروبا وآسيا ـ نظائر ونقائض جغرافية (١) ـ العدد (١٣٦) ابريل ١٩٦٨ (١٦ صفحة)

١٥ ـ بـين اوروبا وآسيا ـ نظائر ونقائض جغرافية (٢) ـ العـدد (١٣٧) مايو ١٩٦٨ (١٣ صفحة)

١٦ ـ بين اوروبا وآسيا ـ نظائر ونقائض جغرافية (٣) ـ العدد (١٣٨) يونيو ١٩٦٨ (١١ صفحة)

١٧ ـ بين اوروبا وآسيا ـ نظائر ونقائض جغرافية (٤) ـ العدد (١٣٩) يوليو ١٩٦٨ (١١ صفحة)

فى جريدة (الأهرام) :

(١) من مشاكل الحكم المحلى . عصر التفرقة بين « مديرية » « محافظة » لا يزال باقيا (١٩٦٤/٨/٢٦)

(٢) حــول برنامـج العمل الوطـنى والدعوة الى خريطة جـديـدة لمصر ـ خـريطة مصـر الجـديدة وجـغرافـية سـنـة ٢٠٠٠ (١) الأهرام (١٩٧١/٨/١١)

(٣) قضية إعادة بناء القرية (٢) الأهرام (١٩٧١/٨/١٥)

(٤) اتـحـاد الجـمـهـورية العــربـيـة : الدولـة والرسـالة ـ الأهـرام (١٩٧١/٩/٢)

(٥) معادلة القوة الجديدة فى الاستراتيجية العالمية : لعبة توازن القرن التاسع عشر .. فى صورة اكبر ـ الأهرام (١٩٧٣/٢/١٣)

(٦) محاور الاستقطاب فى آسيا : هل تصبح آسيا الجديدة .. هى أوروبا القرن الجديد ـ الأهرام (١٩٧٣/٣/٢٤)

(٧) اقـتـراح مـحـدد حـول إعـادة تخطـيط أرض المعـارض ـ الاهرام (١٩٧٣/٧/١٤)

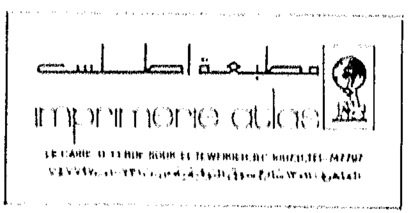
(٨) لا تنقلوا عاصمة مصر (١٩٧٦/٦/١٨)

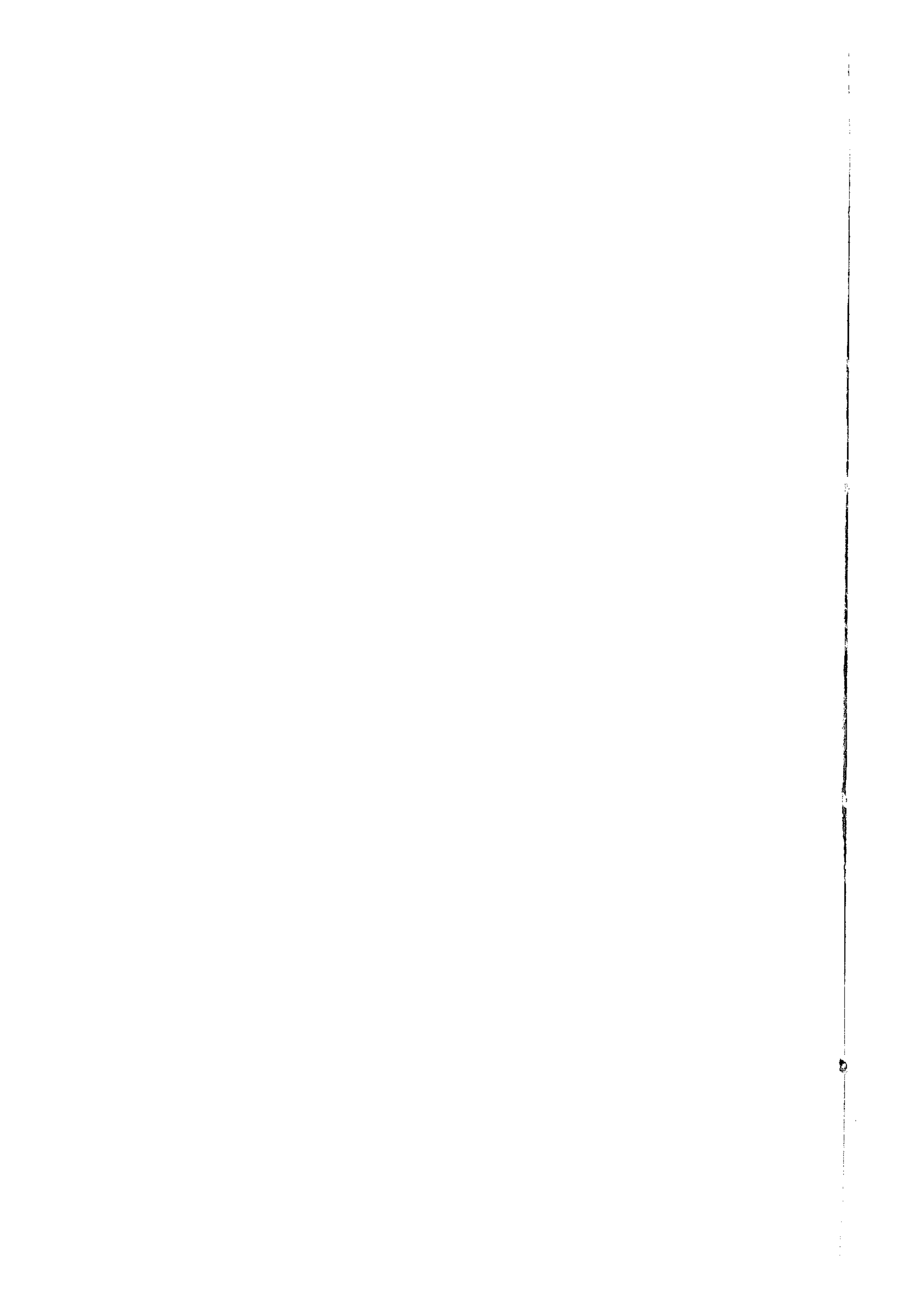
مقالات أخرى فى مصادر متنوعة

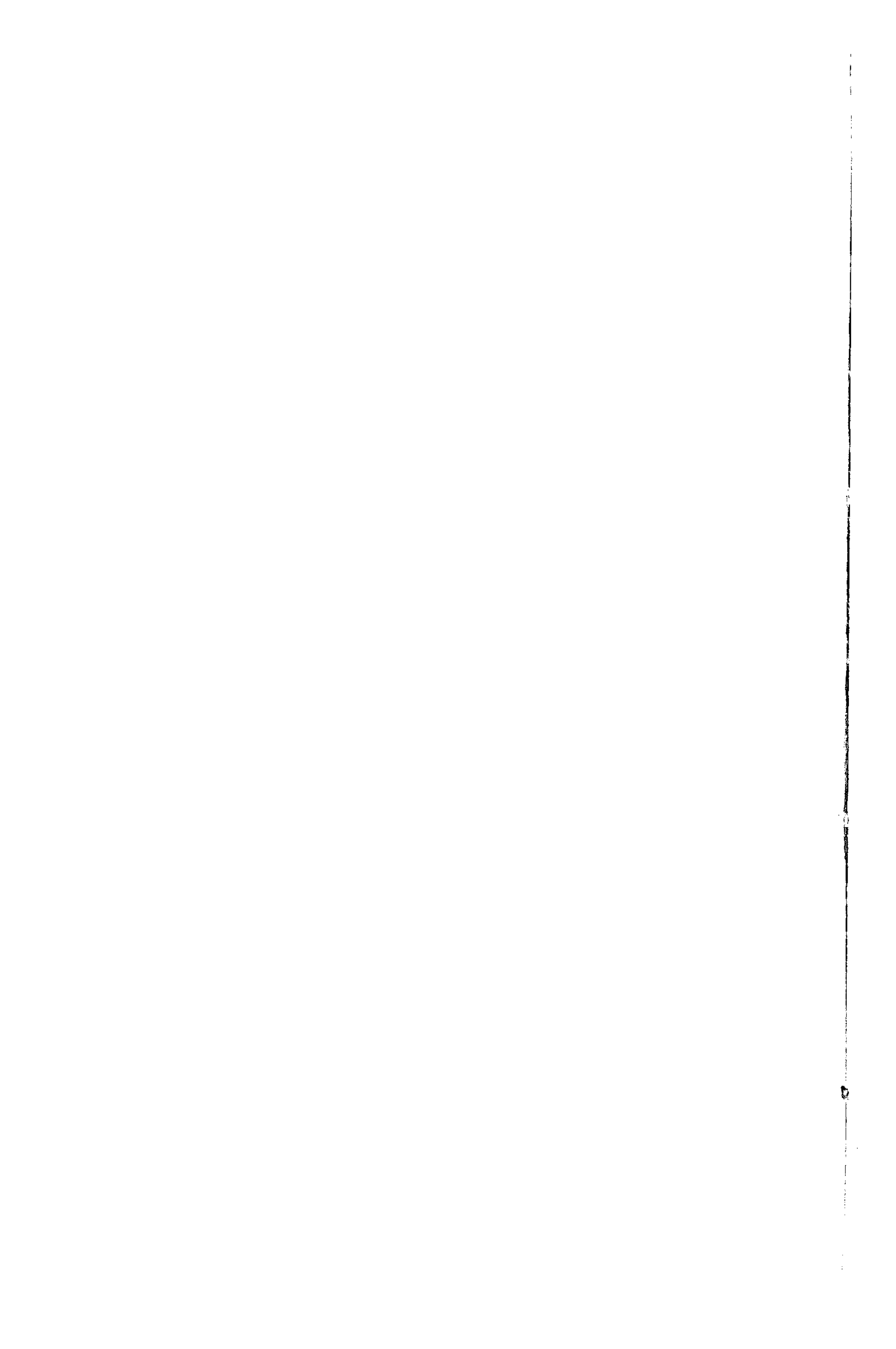
١ ـ نمر وتوزيع السكان فى مصر ـ ١٩٥٩ ـ القاهرة .

٢ ـإعادة بناء القرية المصرية ـ مجلة الطليعة ـ عدد مايو ١٩٧٦ .

رقم الايداع ٩٣٦٨ / ٩٣
I.S.B.N. 977 - 208 - 116 - 4









شخصية مصر

كان الدكتور جمال حمدان مثالاً للعالم الأديب المؤرخ المدقق الذى كرس حياته لكتابة أروع الكتب التى تمجد مصر خاصة مؤلفه الفريد «شخصية مصر» الذى أرسى فيه شخصية مصر وعبقرية مكانتها ، فهو ليس مجرد عالماً الجغرافيا فحسب وإنما هو مفكر فذاً فى تاريخ مصر الحديث .

يعتبر جمال حمدان نموذجاً للأكاديمى الجاد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . فقد أثبت أن الأبتعاد عن المشاكل ليس هروبا بقدر ما هو سمو وأن عزلة المجتمع قد تكون أحيانا أقوى من الإندماج فيه .

كان جمال حمدان ككل العلماء الجديرين بهذا اللقب - يتفوق على تخصصه بل يتخطاه لكى يضع معارفه العلمية والمتخصصه فى السياق الشامل والطبيعى للتاريخ الكلى الذى يجمع بين الحضارة والمعرفة والثقافة والسياسية والجغرافيا وغيرها من العلوم الأخرى .

وداعاً جمال حمدان : عبقرية العشق وطقوس العشاق .

الناشــــر
مكتبة مدبولى

